

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

مدخل إلى
تاريخ وفنون الشاوية

الملتقى الأول لفنون الشاوية
ط 1989

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

مدخل إلى تاريخ وفنون الشاوية

تقديم
محمد بن عيسى
وزير الثقافة

تقديم

لم تعد مجالات الثقافة في مفهومها الشامل، طرحا تقف رفقته الجغرافية، وممارسته البشرية، عند حدود المحيط المركزي، والسماة الوطنية المشتركة وحسب. بل تخطت ذلك العام نحو الخاص، بمثل التنقيب العلمي عن المتفرد في المحلي والاقليمي، بهدف حقن الرصيد الوطني وتلقيحه بمميزاته، إسهاما في إثراء العطاء المعرفي والابداعي، واستكشافا لمسيرة الانسان الحضارية تاريخيا وانترولوجيا، اجتماعيا ونفسانيا.

وفي مغرب الحسن الثاني، تشد الانتباه وتثير كبير الاعجاب مكانة الثقافة اللافتة، وحظوتها بأوفر الرعاية، من خلال ما يحفل به المشهد الثقافي المغربي من معاهد تقنية وفنية عليا، وتظاهرات ومؤتمرات وملتقيات، ومن ندوات ومعارض للكتاب والتشكيل، الى جانب مراكز ودور للثقافة ورعاية للآثار، مما يعكس بكثافته الكمية، واصطفائه النوعي اصالة الانشغالات، ومعاصرة الممارسات.

ولامراء في أن وزارة الثقافة تنهض بالدور الاساسي في صون هويتنا الثقافية، والتحرك المدروس والهادف للارتقاء بها، رغم محدودية إمكاناتها المالية والبشرية. ومن مستجدات العمل الثقافي لهذه الوزارة إحداث الجامعات الموسمية والمراكز الثقافية المتخصصة والمهرجانات المحلية القارة، إضافة

الى تنظيم الاعلان عن جوائز سنوية رفيعة. وكل هذا يتشرف بحظوة الرعاية والتوجيه الكريمين لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

ومضيا في أداء دورها، اعتمدت وزارة الثقافة ملتقى فنون الشاوية الموسمي صيغة لتنشيط الفعاليات الثقافية في مدينة سطات، ودعم محاولات سبر تاريخ وفنون الشاوية. ووعيا بالغنى التاريخي والفني لمنطقة الشاوية، وضعت الوزارة تنظيم هذا الملتقى في صدارة برنامج احتفالها بالعيد الواحد والستين لميلاد قائد البلاد وعاهلها المفدى.

وقد استقبلت مدينة سطات ملتقى فنون الشاوية الاول خلال الفترة من 24 الى 30 يونيو 1989، وحظي نشاطه الثقافي بتجاوب أبناء الشاوية مع تلون مواده: من معارض كتب، ومخطوطات، وتشكيل، ومن حفلات موسيقية. وفي مقدمة هذا النشاط تنظيم ندوتين اكاديميتين تدارست أولاهما محور: «تاريخ الشاوية»، والثانية محور: «فنون الشاوية»، وأسهم في إلقاء عروضهما صفوة من الأساتذة المعنيين بتاريخ وفنون المنطقة.

وحرصا من وزارة الثقافة على إشاعة الاستفادة من الاعمال البحثية المقدمة في اطار الندوتين، وتوثيقا لما تشكله من اطلالة على منابع ومكونات انسان وتراث الشاوية، تقدم بين دفتي هذا الكتاب نصوص عروض الندوتين، متطلعة الى ان تثير هذه المبادرة مزيدا من الحوار الثقافي، ومن الاهتمام بخصوصية وجزئيات تاريخ وفنون منطقة الشاوية، رفدا لمشروع الاحاطة بتاريخ أمتنا عبر مختلف العصور، وشامل الجهات، وكافة المجالات، حتى يتحصن الجيل الحاضر والقابل بما يدرأ عن مواطنته خطر الاستلاب والذوبان في الآخرين

محمد بن عيسى
وزير الثقافة

ندوة تاريخ الشاوية

الأساتذة المشاركون

أحمد بوكاري	محمد المنوني
علال الخديمي	د. مبارك ربيع
أحمد زيادي	د. محمد مفتاح

أدار الندوة :

المهدي الدليرو

الوجه الثقافي للشاوية عبر العصر الحديث

محمد المنوني
كلية الآداب - الرباط

من خصائص النشاط الثقافي في موقع ما، نزوح أفراد من المثقفين خارجا عن منطقتهم، فيأتي ذلك شاهدا على قيمة الوضع الثقافي في بلد الراحل الى جهة معينة، ويهمنا - الان - من نماذج هذه الظاهرة، أقاليم الشاوية خلال العصر الحديث : الحقبة التي يلتزمها هذا التدخل، حيث تمتد الى القرن التاسع عشر وبداية العشرين، وهي الفترة التي ننزع منها ثلاثة أسماء لامعة، انتقلت من موطنها لتذيع اسم بلدها بين أوساط أخرى.

ويأتي في صدر اللائحة اسم سيدي رحو الغنامي، وهو عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي، اشتهر بتأليف رحلاته الحجازية التي سماها : «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين»، حيث دون فيها ارتساماته عن وجهته للحج والزيارة عام 1729/1141.

ولحسن الحظ فإن الرحلة لا تزال بقيد الوجود، في نسخة فريدة بالخرانة الحسنية رقم 5656 : باخرها بتر.

وبعد هذا الرحالة نلتقي مع فقيه لامع : محمد الرغاي الشاوي قببلا، الفاسي انتقالا وقرارا، الكداني منزلا ومولدا، والمتوفى عام 1739.38/1151.

وهو مؤلف حاشية على شرح ميارة لتحفة ابن عاصم : «الكواكب السيارة في مسابرة فقيه فاس ابي عبد الله ميارة»⁽¹⁾.

وكدانه بالكاف المعقودة : قبيلة بالشاوية بين نهر أم الربيع وقبيلة أولاد سعيد، وقد تصحفت بالكراري عند الحوات في «الروضة المقصودة»، ثم عند الكتاني في «سلوة الانفاس» وأبعد القادري في «نشر المثاني»، فاقصر على وصفه بالزرهوني.

وننتقل - الان - الى الاسم الثالث من هذه النماذج : العربي بن المقدم المنيعي، من قبيل أمزاب بالشاوية، تـ 1900/1317، جاء في ترجمته من «فواصل الجمان»(2).

«... عني بالتجوال، في السهول والجبال، وايتار الاجفال، لرفع الاغفال، ثم ألقى عصي تسياره بفاس قطب مداره، وجارة وجاره، واستكن ببعض مدارسها، لاقتناص فوائد العلم من مكانسها، وتقلبت به الاحوال، الى أن استكتب في خارجية الاشغال، فظهرت كفايته، وخفقت في جو النباهة رايته، واعتبر من الكتبة الاعيان، حتى استنيب عن الوزير في بعض الاحيان».

نضيف الى هذه النماذج من العلماء، ثلاثة اسماء عرفوا ببلادهم عن طريق ترشيحهم لمهمات سامية، والقصد - اولا - الى عامل أولاد حريز : عبد السلام بن محمد ابن رشيد، رئيس سفارة السلطان الحسن الاول الى ألمانيا عام 1306/«1889»، فيأتي التنويه به في رسالة حسنية هكذا : «... وهو من خواص العمال وأرفعهم مكانة لدينا، ودارهم دار ولاية خلفا عن سلف، مع مالهم من الاتصال بنا وبأسلافنا المقدسين»(3).

الثاني : عامل قبيلة المزامزة : الحاج المعطي بن عبد الكبير بن المدني المزميزي، رئيس سفارة نفس السلطان الى فرنسا عام 1306/«1889»، وهذه صيغة التنويه الحسن بالسير : «... انتخبناه من سليل الجماهير، خدام أعتابنا الشريفة المشاهير، الذين لهم القدم الراسخ فيها خلفا عن سلف، ومن بيوتات المجد»(4).

والى هذه المهمة ذهب الحاج المعطي الى ايطاليا، سفيرا عن السلطان الحسن الاول(5).

وإضافة الى السفيرين، نشير الى ابن البجاج : محمد بن عبد الله بن صالح المزميزي، وزير الحربية أواخر ايام السلطان الحفيظ(6).

*

**

والان، نعود الى ملامح النشاط الثقافي بالشاوية انطلاقا من مدينة سطات، حيث استوطنها عدد من العلماء، ونشير - هنا - الى خمسة أسماء من القرن التاسع عشر، مع ملاحظة أن الثقافة العربية في العصر الحديث، ارتكزت - في أغلبها - على العلوم اللسانية والدينية.

وفي هذا الاطار نعرض الاسماء التالية، انطلاقا من الشيخ محمد صالح بن النهامي بن المير الشرقاوي العمري، مستوطن سطات ودفينها عام 1861/1279.

يذكر تلميذه ابو الشتاء الكداني آتي الذكر، دراسة استاذة - بأزمور - على

عالمها الشيخ محمد بن أحمد بن دح : «ولازم مجلسه في التدريس، في العشي والتغليس، نحواً من عشرين سنة حتى فقه وتنبه، وأخذ عنه علوم الشريعة وفي الدين تفقه».

وفي تعبير آخر لابي الشتاء : أن شيخه سمع «صحيح البخاري» - من ابن دح - نيفا وعشرين مرة.

ويضيف هذا المصدر (7) عن قراءة استاذہ الشرقاوي بفاس : «ثم رحل - باذن شيخه المذكور - لمدينة فاس، في فاتح الخمسين عاماً بعد المائتين والالف، مكث بها عاماً ونحوه، فتلاقى فيها مع الامام الصالح سيدي محمد صالح الرضوي البخاري قدم من بخارى... وأخذ شيخنا عن البخاري المذكور علم الطب، والتفسير سمع منه شيئاً فيه، وقرأ عليه ألفية العراقي في الاصطلاح، وأجازه في الصحيحين... وفي غيرهما...».

وعن سلوك المترجم يسجل عنه المصدر ذاته : «وكانت أفعاله وأقواله جارية على السنة النبوية، حتى في أكله وشربه وتنعله».

نتنقل - الان - الى الاسم الثاني من علماء سطات : قاضيها ابي الشتاء بن عبد الله الكداني السطاتي، ت 1309/«1892-91»، وهو تلميذ الشيخ محمد صالح المذكور قبله، فيقول عن قراءته عليه : «... فلازمته ليلاً ونهاراً للاخذ عنه : تدريساً وقراءة ومذاكرة، فحفظت عنه ألفيتي الولي العراقي : التي في الاصطلاح والتي في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكنت نجتمع معه في قبة سيدي الغنيمي ويجلس بي في موضع دفنه، ونقرؤهما - تلاوة - من حفظنا قراءة اجتماع، وسمعت منه «صحيح البخاري» مرات، و«الشفاء» مرتين، و«الموطأ» مرة»(8).

ويعتبر هذا هو عمدة المترجم، ومن شيوخه الآخرين : ابن دح الازموري، والشيخ العربي ابن السائح، وبفضالة عالمها السيد عبد الله الفضالي.

وعن تدريس صاحب الترجمة للحديث، يفيد البعض أنه كان يستحضر ألفية العراقي في الاصطلاح، ويطبق ما فيها على ما يقرره من الحديث(9).

ولا يعرف من اثار قلمه سوى كناشة دونها، ويتبين من النقول عنها أنها مفيدة(10).

ثالثاً : الشيخ محمد بن الطيب الشاوي البوعزاوي، ت 1332/«1914» عالم مجاهد، غلب عليه طابع التربية الصوفية، وخلف في هذا الاتجاه وما اليه بعض المؤلفات والرسائل(11).

رابعاً : الشيخ محمد البجاج بن علي بن محمد المزميزي البجاجي، قرأ - بسطات - على شيخه السيد أبي الشتاء الكداني المتكرر الذكر، ثم رحل لفاس،

وعمدته هو شيخه الاول، لازمه بسطات، وأخذ عنه ما كان يدرسه من حديث ونحوه.

خامسا : الشيخ شعيب بن محمد بن محمد البهلول الشاوي المزابي، أخذ العلم بدكالة والشاوية، ثم تصدر للتدريس بسطات، فانتفع به الناس من الشاوية وغيرها، وبعد الاحتلال انتقل للسكنى بمراكش، حيث انتصب بها للتدريس والافتاء.

*

**

ومن قضاء سطات : الفقيه السيد حمادي بن العربي المزميزي، الناصري طريقة وتعلما بتمكروت.

ولده الفقيه السيد الصغير.

وبعده السيد ابو الشتاء الكداني سابق الذكر.

ولده الفقيه السيد محمد، وفي ولايته كان احتلال الشاوية(12).

*

**

ومن قضاة سطات وعلمائها، ننتقل لالقاء نظرية على مسار التعليم الاصيل بالشاوية : المنطقة التي حفلت بالمراكز التعليمية للقران الكريم والعلوم الاصيلية : مدارس ومساجد وزوايا، مع كفاية للمتعلمين : مطعما ومسكنا، في نشاط مكتف امتد الي حوالي منتصف المائة الهجرية المنصرمة : نحو 1350 هـ، ولا يزال بقيد الحياة أفراد ممن مروا بهذه المؤسسات.

ومن الشهادات الرسمية بهذه النهضة العلمية، ظهيران حسنيان برسم العلماء والمتعلمين بالشاوية، ويحمل اولهما تاريخ 15 ربيع الثاني عام 1291/«1874»، فيبعث فيه السلطان الحسن الاول بهذا النداء الى المعنيين بالامر :

«إن طلبه العلم الشريف بقبيلة الشاوية، أقررناهم على ما عهد لهم حياة مولانا الوالد قدس الله روحه، واسكنه من الجنان فسيحه، من الاعتناء بهم، ومراعاة جانبهم، وتمييزهم عن غيرهم من العوام، خصوصا من بلغ مرتبة التدريس منهم، فقد خصصناه بمزيد التعظيم والاحترام.

وقد أقررناهم على عادتهم المألوفة، وطريقتهم المعروفة، لانهم حملة الدين، وخلفاء الائمة الراشدين، ولن تزال قبيلتهم بخير ما عظموا علماءهم، واخلصوا في ذلك لله نيتهم وعملهم».

أما الظهير الثاني فهو مؤرخ في 12 ربيع الثاني عام 1292/«1875»،
وتأتي فيه التوصية برجال التعليم في الشاوية بهذه الصيغة :

«إننا أسدلتنا أردية التوقير، ووقايات المبرة والمراعاة والتحرير، على طلبة العلم أهل قبيلة تامسنا : العالمين والمتعلمين، القاطنين فيها على نشره وطلبه والراجلين، وأسقطنا عنهم التكاليف المخزنية، والمطالب السلطانية، ولا يدخل معهم في التحرير من لم يَمَ منهم بنشره وتعليمه، والرحلة اليه في طلب تحصيله، واخذه عن العلماء وتنميته، قاصدين بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الحسيم، وتكثير العلماء العاملين، انصار الملة والدين.

فنأمر خدامنا عمال الشاوية كافة، بأن يتلقوا هذا الامر الشريف بوجوه الاعتناء والامتنال، ويقدرُوا قدر هذه الفئة العلمية المباركة ويلاحظوها بعين الوقار والاجلال».

*

**

والى هنا ينتهي بنا المطاف الى مراكز التعليم الاصيل بالشاوية، وقد تبينا وفرتها، وتعدد القابها، وسنبرز منها ثلاثة نماذج موزعة بين جهات المنطقة.

والقصد - أولا - الى مدرسة النواصر بأولاد حريز : (الزاوية الناصرية)، على بعد نحو 25 ك.م من الدار البيضاء، وقد نوه بها احد تلاميذها العلامة الحاج المفضل الشاوي الحريزي، فعدد العلماء الذين مروا بها وعددهم كثير، وجمع اسماءهم في أرجوزة مطولة، باسم «الجوهرة الدرية في علماء الزاوية الناصرية»، ثم نشرها بذيل كتابه : «رسالة الاصفياء...»⁽¹³⁾، حيث سيأتي نصها عند ملحق لهذا العرض.

ومن الوثائق المتصلة بشيوخ هذه المدرسة، رسالة من السلطان الحسن الاول، الى عامل اولاد حريز بتاريخ 14 محرم عام 1293/1877، وجاء فيها بعد الافتتاح :

«... وبعد، فحملته الثمانية من النواصر القاطنين بأولاد حريز المسمين بالطرة، اقاموا بينة بأنهم من أهل العلم الشريف، معدودون من الفقهاء، مكبون على تعليم من يأتيهم من الطلبة، بقصد تعلم العلم مما يقرب اليهم من طلبة نواحيهم، بحيث لا يقدمون لفاس الا بعد ابتداء القراءة عليهم، وعليه فنامرك ان تجريهم مجرى أهل العلم الشريف بقبيلتك».

وهذه وثيقة لفيفية، تسمى تسعة من المدرسين بمدرسة النواصر، وتحمل تاريخ 7 شعبان 1306/«1889» :

«الحمد لله، شهوده الموضوعة اسمائهم عقب تاريخه، يعرفون الفقهاء الاخيار، العلماء الابرار، الشرفاء الاطهار، المدرسين النصحاء، اثناء الليل واطراف النهار : الاخوة : سيدي المكي بن سيدي محمد، وولده سيدي محمد، والاخوين : سيدي العربي والسيد بوشعيب ولدي اخي سيدي المكي المذكور : سيدي التهامي النسب، والاخوة الثلاثة : سيدي بوشعيب وسيدي ع وسيدي علي، اولاد سيدي عبد الله النسب، وسيدي العربي بن الفقيه السيد اليماني، وسيدي بوشعيب بن الطيب، وكلهم من الشرفاء آل سيدي علي بن ناصر، القاطنين بالشاوية واخوانهم في بلد حمير :

المعرفة التامة الكافية شرعا بها، ومعها يشهدون بأنهم معتكفون على قرءة العلم وتدريسه بزوايتهم بالشاوية، وملازمون للصلاة بها مع الجماعة وقرءة الحزب صباحا وعشية، ويكرمون الضيوف، ويرتبون الطلبة لقرءة العلم وكتاب الله عز وجل، وانهم موقرون ومعظمون ومحترمون، لا تجري عليهم عادة من عوائد العوام اهل الشاوية : عهدوا من الاباء توارثها الابناء، ولازالوا على الحالة الموصوفة الى الان وحتى الان».

وعند هذه الوثيقة تنتهي معلوماتنا المحدودة عن «مدرسة النواصر»، وتأتي - بعدها - المدرسة او «الزاوية التاغية» بأمزاب، على بعد نحو 3 كم جنوب قسبة ابن احمد، ومؤسسها هو الاستاذ الصالح الحاج احمد التاغي الحمداوي المزابي، باشارة وتوجيه من شيخه الشيخ العربي بن المعطي الشرفاوي، وتوفي حوالي عام 1270 هـ.

وقد صارت قبلة لحملة القرآن الكريم من مختلف الجهات، يؤمنونها لتحصيل القراءات السبع، ثم تطورت الى مدرسة قرآنية، ومعهد للتعليم الاصيل، وكان ذلك بمبادرة حفيد المؤسس : الفقيه الحاج ادريس بن المعطي بن الشيخ أحمد التاغي، المتوفى عام 1308 هـ، وقد أرسل الى فاس بعثة طلابية في خمسة من ابناء الاسرة، ولما أكملوا تحصيلهم عادوا الى الزاوية التاغية، واضطلعوا بتدريس العلوم الاصيلية بها، وفي هذا الصدد نشير الى واحد ممن درسوا بهذه المؤسسة مد الله - سبحانه - في حياته، وهو الاستاذ العالم محمد الحمداوي، فيصف نشاط المدرسة في فترة دراسته بها :

«... وقد أدركت حين أنهيت حفظ القرآن وأخذت اتعلم العلم، من شيوخ العلم بهذه الزاوية، شيخنا الفقيه القاضي الحاج العربي، المتوفى سنة 1359، وشيخنا الفقيه الحاج محمد بن محمد بن الحاج بن عباس، المتوفى سنة 1363، وشيخنا الفقيه السيد بوشعيب المزمزي، وشيخنا الفقيه السيد ابو شعيب الابراهيمي.

وقد كانت الحصص اليومية التي كانت تعطى فيها دروس العربية والفقهاء

والفرائض والتوحيد والمنطق : ست حصص في اليوم، وفي هذا المسجد حذقت كما حذق رفاقي في الدراسة في ذلك الوقت، مقدمة ابن أجروم، وامتت دراسة ألفية ابن مالك، وجزء العبادات ومعظم جزء البيوع من مختصر خليل، وعلم الفرائض من مختصره، ومثن ابن عاشر، وجزءا كبيرا من المنطق بشرح بناني، وقد كان يقوم بتدريس هذا الفن الاخير شيخنا القاضي الحاج العربي«(14).

ونذيل على الزاوية التاغية بمدرسة الغازيين في قبيلة زناتة، وصارت لها الشهرة الكبيرة هي ومدرسة فضالة، ومن علماء هذه الاخيرة الفقيه السيد عبد الله الفضالي، حيث تبينا - سلفا - انه من شيوخ قاضي سطات ابي الشتاء الكداني، وقد أخذ عنه بفضالة.

وممن اشتهر من علماء زناتة، محمد بن الغازي بن عزوز الزناتي، وابن عمه المسمى المير بن محمد بن عزوز الزناتي، وقد طالمت مدة قراءتهما بفاس، الى أن اتما دراستهما عام 1316 هـ، وهو تاريخ اجازتهما من فقيه المغرب الشيخ المهدي الوزاني، فيقول فيها : «الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد واله.

وبعد، فان الفقيه الاديب، العالم الفاضل الاريب، السيد المير بن سيدي محمد بن عزوز الزناتي، وابن عمه الفاضل الخير الناسك، العالم العلامة : سيدي محمد بن الغازي بن عزوز ايضا، ممن حضر لدينا لقراءة العلم الشريف بجامعة القرويين بفاس، وطال تردهما لمجالسنا ومجالس غيرنا، لتعلم العلم وأخذة بجد واجتهاد، حتى حصلنا على أوفر نصيب.

ولما عزمنا على الرجوع لبلدهما، طلبنا منا الاذن لهما في تدريس العلم ونشره، ليكون كالشهادة لهما بأنهما ممن يتصدر لذلك ويستحقه، فأذنا لهما في تدريس المختصر والتحفة والزقاقية والالفية، وغير ذلك من كتب الفقه والنحو والتوحيد وغير ذلك : إذنا تاما.

وعليهما بنقوى الله ومراقبته، والوقوف مع الحق والانصاف، والتواضع للمسلمين كلهم، والرفق بهم، وان يقولوا فيما لا يعلمانه لا أدري، والله يفتح بصيرتهما، ويأخذ بيدهما، امين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه في ثالث عشر جمادى الاولى، عام ستة عشر وثلاثمائة ولف : عبد ربه تعالى : المهدي بن محمد الوزاني الحسنى العمراني، لطف الله به».

وذيلت هذه الاجازة بالموافقة عليها من جهة ثلاثة من اعلام فاس :

- محمد بن محمد بن أحمد البركة زويتن.

- العباس بن احمد التازي.

- محمد المامون بن رشيد العراقي(15).

الهوامش :

- (1) كان الذي جمعها وسماها باسمها هو محمد بن محمد الصادق بن احمد الحسيني العلمي اليونسي اليريسوني التطواني، جمعها من تعاليق الشيخ يعيش الشاوي التي قيدها بخطه على هوامش نسخته من ميارة، حسب مخطوطة الخزانة الحسينية 7777.
- (2) المطبعة الجديدة فاس 1347 هـ ص. 194.
- (3) «عبير الزهور» للمرحوم هاشم المعروفي، مطبعة النجاح بالدار البيضاء 1987 : 312/1.
- (4) «اتحاف اعلام الناس»، المطبعة الوطنية بالرباط 1930/1348 : 317/2.
- (5) المصدر : 352/2، وسمي هنا - غلطا - باسم والده عبد الكبير.
- (6) من خط الشيخ عبد الحي الكتاني.
- (7) هذه المعلومات غميسة عند الشيخ فتح الله البناني، في رسالته «رشد القارىء بمقدمة افتتاح صحيح الامام البخاري»، المطبعة الاهلية بالرباط 1343 هـ : ص. 24.22.
- (8) المصدر ص. 23.
- (9) من خط الشيخ عبد الحي الكتاني.
- (10) ينقل عنها محمد بن احمد العبدوي الكانوني.
- (11) ترجمته عند ابن الموقت في «السعادة الابدية» ط.ف : 152/1، ثم عند ابن ابراهيم في «الاعلام» المطبعة الملكية بالرباط : 190.188/7.
- (12) من خط الشيخ عبد الحي الكتاني.
- (13) المطبعة العربية بالدار البيضاء 1355 هـ ص 177.172.
- (14) مجلة «دعوة الحق»، العدد الاول، السنة السادسة عام 1982/1362 : ص. 23.22.
- (15) هذه الاجازة مع نصوص الوثائق عن مسار التعليم الاصيل بالشاوية : جميعها من مصورات جائزة الحسن الثاني المخطوطات والوثائق.

الجوهرة الدرية في علماء الزاوية الناصرية

نظم الحاج المفضل الشاوي الحرزي

وبأولي العلم فضلا عرفنا
ومنح من اجتباه حلما
شيوخه سراويل السرور
ونور الكون فكن ذا علم
وءايات لم تحوها أسفار
على محمد ومن به اقتدى
مناثر الزاوية المنورة
فكم بها من عالم ومن امام
واجن ثمار العلم من تلك الحقول
بقطرنا الحرزي دون مرية
فيها شمس أشرقت على الدوام
والحبر عبد الله السيد الجليل
نال المفاخر العلا من أدركه
الفاضل النجل لعيسى السيد
واللوذعي محمد نال المرام
وشيخنا امنية الاسلام
نجل سراجنا المكي ادريس
ومن مناهل علومه اكرع
أحمد نجلان لعبد القادر
أبو شعيب صنوه الممجد
لاحمد واخويه الطيب

(الحمد لله الذي علمنا)
والانبياء ورثنا علما
وألبس التلميذ من برور
وزين السورى بأهل العلم
فقد أتت في فضلهم أخبار
ثم الصلاة والسلام سرمدا
وبعد فالقصد بهذي الجوهرة
وذكر جل علمائها الكرام
فلتاتها وان بعدت يا عقول
ببلدة الشاوية الزم قرية
فيها بدور طلّت على الانام
فمنهم الامام أحمد الجميل
وشيخنا المكي الامام البركه
ابناء ذي مائر محمد
وشيخنا ابو شعيب الهمام
وشيخنا العربي بنو التهامي
محمد وحبنا الانيس
وشيخنا التهامي بابه اقرع
وشيخنا المرتجي لطف القادر
وشيخنا أحمد ذاك الامجد
محمد دفين فاس والاب

والمهتدى بربه اليماني
وابن اليماني العربي من يرعى
ومن لحل المشكلات يرصد
وسيدي شعيب يا الله
وطاهر وعمر ثم علي
واللوذعي محمد بن الطيب
والجهبذ عيسى اجاب قدما
فهؤلاء اعلم من العيسويين
فمنهم من كان شمسا ضاحية
كهف الاماني مصدرا لمن ذكر
عمرو الامام بن علي زكرا
والرجل النبيه ذو النصح الجلى
والمرحوم الهمام عبد الله
اكرم بفرعين من الجيلاني
سراجنا المنير وهو ابن عمر
محمد من اولياء الله
التهامي الكريم ذو القدر العلي
عبد السلام ابن عبد للجليل
راجي الكمال فرع عبد القادر
والكاتب ابن المعطي الجيلاني
وبالسادات الفضلا بني قدور
فهؤلاء من بدور الزاوية
لديهم الشفاء والضياء
بهم تباهت العصور والبلاد
إلزم حماهم زر علاهم بالادب

وادريس نجل المعطي الرباني
محمد وهو ابن عيسى يدعى
العالم المحمود فعلا احمد
في جنة الفردوس خر مثواه
ابناء عبد الله السالف العالي
فالتاريخ اعلم وعلوم النسب
ابن ابراهيم تعلم علما
ثم لنذكر علما العمريين
في عصره ورحمة للبرية
ومن سيذكر كما عتقهم شهر
فكم له من الاجور ذخرا
الشافعي بن الخطاب ينجلي
والمرتضى موسى استقم يااهي
وطيب قد طاب في الجنان
والطيب بن العسري فيمن قد غير
ومن بنى مساجدا لله
ابو المعالي وهما نسل علي
والنجيب ابو شعيب الجميل
فالله سل وسلم المقادير
من حاز علما فاز بالاماني
ابن الحدوى ذاك عيسى المشهور
من امهم يظفر بالمزية
وفيهم الوفاء والذكاء
يا حبذا اهل الصلاح والرشاد
نلت الامال صاح واكثر في الطلب

«رسالة الاصفياء» : مصدر سابق

القيم الاجتماعية التربوية والتحول الاجتماعي في منطقة الشاوية (الوسط القروي)

د. مبارك ربيع
كلية الاداب - الرباط

يقصد بالقيم بصفة عامة ما يجعل الشيء او الموضوع مرغوبا فيه، من قبل الفرد أو الجماعة ؛ ومن هنا فهي تطلق في كثير من الميادين. فهناك قيم اقتصادية هي ما يجعل الشيء يرتبط بثمن مرتفع، او يجعله مفيدا ذا مردودية مادية (مالية) ؛ وهناك قيم جمالية وهي ما يجعل الأثر الفني مرغوبا فيه لجماله او طرافته وعمقه ؛ والقيم الاخلاقية هي ما يجعل الفعل الاخلاقي الذي يقوم به الشخص او الجماعة يتسم بالخير ..

وبما ان الكائن البشري يحيا في جماعة، أو هو كائن اجتماعي، فان العنور على صفة ذات طابع فردي خالص او جمعي خالص من الصعوبة بمكان، الا ان يكون على سبيل التجريد او التخصيص ؛ فعندما نتحدث عن قيمة ما بأنها فردية او جماعية، لا يعني ذلك أكثر من تحديد منظورنا الخاص لهذه القيمة من حيث الوظيفة المباشرة وبالتاكيد، فان هذه الخاصية للجمعية الفردية اذ تصدق على كثير من المعطيات الانسانية، فانها تصدق على منظومة للقيم اكثر من غيرها، ولذلك فان جملة كبيرة من القيم يطلق عليها القيم الاجتماعية، بل تكاد هذه التسمية تطغى على ما عداها في هذا المجال .

ويدخل ضمن القيم الاجتماعية ايضا تلك الخصائص او الصفات التي تجعل الشيء مرغوبا فيه لانه يحفظ تآزر الجماعة او يتناسب مع الميول العامة، ويحظى بالاجماع او الاغلبية. أما مصدر القيمة، فيمكن إرجاعه الى عرف او تقليد، او ميديا

ديني، او اجماع سياسي او اتفاق... وقد رجع مصدر القيمة الى عدة مبادئ من ميادين مختلفة. فالامانة باعتبارها قيمة ايجابية مرغوبا فيها ؛ والخيانة او السرقة باعتبارها مسلبا للقيمة السابقة ؛ وبالتالي باعتبارها مرغوبا عنها.. يمكن ارجاع مصدرها معا الى العرف والتقليد والدين والقانون والاخلاق والاقتصاد ... فبصرف النظر عن مصدر القيم، على النحو الذي ذكرنا، فان الموضوع أو الشخص أو الفعل الذي يتصف بها، ويرتبط وجوده بوجودها، يصبح هو بذاته قيمة اي نموذجا لما تمثله القيمة ذاتها، ونجد أمثلة لا حصر لها في حياة الامم والشعوب من هذه الوقائع ؛ فحاتم الطائي قيمة في الكرم، وعنثرة أو عمر بن معدي يكرب في الشجاعة ؛ والرسول (ص) قبل الاسلام مثل قيمة الامانة ؛ وعمر بن الخطاب قيمة العدالة... كما نجد الابوين يمثلان قيمة في التضحية والايثار، والمعلم قيمة في المعرفة والاخلاق «كاد المعلم أن يكون رسولا...» «من علمني حرفا صرت له عبدا...» وفي حياتنا الاجتماعية اليومية ايضا لا حصر للامثلة على هذه النماذج من القيم - الاشخاص او الموضوعات ؛ فاهل سوس يمثلون قيمة للامانة في التعامل التجاري ؛ واهل الشاوية يمثلون قيمة في الكرم والفرسية... وفي مجال النضال السياسي والاجتماعي يمثل المغفور له محمد الخامس قيمة في التضحية والوطنية والوفاء والمرحوم محمد الزرقطوني، وتتميز القيم الاجتماعية بالتطور والتغير ؛ وهذا واضح من تنوع المصادر التي تنشأ عنها ومنها ؛ كما انها تتميز بارتباطها بالانسان، اذ لا يمكن للانسان ان يحيا بدون قيم ؛ فقولة بسكال عن اختلاف الحقيقة ونسبيتها فيما قبل جبال البريني او وراءها ؛ تجد مصداقيتها الكاملة في ميدان القيم الاجتماعية .

ولقد اخترنا التركيز على جملة محدودة من القيم الاجتماعية بمنطقة الشاوية، هي القيم التربوية، لعدة اسباب يأتي في طليعتها اهمية هذا النوع من القيم الاجتماعية المتصلة بالطفولة والتربية لارتباطها بصنع المستقبل وتصوره، وبالتالي لارتباطها الاوثق بالتحول الاجتماعي، بل والتطوير الاجتماعي، لا للتطوير فحسب .

أما التحول الاجتماعي، فيقصد به انتقال المجتمع من حالة الى حالة، وهذا التحول يتخذ له مظاهر في جميع الميادين، وتتداخل فيه عدة عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية، ودينية وغيرها فهو يعني تطور المجتمع بالمعنى الشامل ؛ والذي لا يمكن ان يستثنى منه مجتمع بشري. اما عكسه وهو «الثبات الاجتماعي»

فليس من سنن المجتمعات البشرية، لذا فالحركة والسيرورة تعتبران من خصائص المجتمع البشري .

بيد ان التحول الاجتماعي يمكن ان يظهر في جانب من حياة المجتمع بصورة ابرز منه في غيرها ؛ كما انه يمكن ان يكون بطيئا او سريعا، تبعا لقوة العوامل الفاعلة فيه. ورغم اتفاق العلماء على ان التحول الاجتماعي خاصية جوهرية في التجمعات البشرية، فان اختلافات كثيرة او التباسات تقوم بينهم حول الاتجاه، الذي او الاتجاهات التي يسير نحوها التحول الاجتماعي، والاهداف التي «يسعى» لتحقيقها... والنظريات هنا لا حصر لها... لكن الاهم هو ان ظاهرة التحول الاجتماعي، رغم انها ظاهرة عادية وتعتبر طبيعية في المجتمع، الا ان ما يستفاد من الواقع، ومن مختلف النظريات، ان ثم امكانية للتدخل في توجيه هذا التحول، والتخطيط له ؛ اي بالتالي امكانية التحكم فيه نسبيا لا لايقافه ولكن لتوجيهه حسب الاهداف المتفق عليها من قبل المجتمع او جماعة محدودة منه. يضاف الى ذلك ما يستفاد من دراسة كثير من النظريات التي اهتمت بالتحول الاجتماعي، من ان هذه النظريات تجد قصدها عندما تحاول ان تضبط مراحل هذا التحول وتحددها بصفة حتمية صارمة ؛ ذلك أن أغلبها في هذه الحال يتمثل حالة حاضرة او مستقبلية تكون قمة التحول وبالتالي نهايته... مما لا مجال للخوض في تفصيله هنا .

واهم ما يمسه التحول، ويحصل به وفيه، هو مجال القيم الاجتماعية، وخاصة التربوية منها، باعتبار ان مجال التربية هو مجال التنشئة الاجتماعية للاطفال، وهو بذلك في صميم عمليات التحول الاجتماعي، لانه يعني صنع الاجيال، اي صنع التحول باهم اداة وهي الانسان الناشئ ؛ هدف التحول في الوقت ذاته .

ويمثل الوسط القروي بالمغرب على الخصوص الوسط الاكثر تحولا ؛ وهذه الظاهرة تستحق عناية خاصة نظرا لما للوسط القروي من تأثير في سيرورة المجتمع المغربي التنموية .

فالمعطيات غداة الاستقلال كانت تشير الى أن الوسط القروي يمثل 5/4 سكان المغرب تقريبا ؛ وبالضبط فان احصائيات 1952 كانت تشير الى ان الوسط القروي يمثل 83 % من سكان المغرب اي انه بالتالي يمثل خزاننا بشريا هائلا من اليد العاملة المنتجة والقابلة لان تكون اكثر انتاجية. وكل مشاريع التنمية، والتطوير او التحديث الاجتماعي تعتمد على الانسان كأداة وهدف في الوقت نفسه ؛ بل ان العنصر البشري هو القيمة الاساسية المادية والمعنوية في كل ذلك.

وبالإضافة الى ذلك فالوسط القروي، ومنه منطقة الشاوية بالخصوص، يمثل الخزان الاساسي لثروة المغرب الفلاحية .

. ونود هنا ان نشير الى ان التحول الاجتماعي في التحليل الذي نسوقه، لا يعني التحول الثقافي، الذي هو اعم واشمل، والذي يتجلى على الخصوص ويتركز في المظهر اللغوي ؛ وهو التحول الذي نجد له مظاهر في كثير من البلدان الافريقية وغيرها، من التي تضطر بصفة جذرية الى تبني لغة غير لغتها لا تربطها بها رابطة تاريخية او وطنية او دينية وبالتالي لا ترتبط بتقاليدها وثقافتها... فمثل هذا التحول الثقافي يحر معه سلبيات كثيرة تمس الطبع الوطني (C.N) والقومي ؛ والشخصية القاعدية للفرد والمجتمع (P.B) .

ان مؤشرات التحول الاجتماعي بالنسبة لاي مجتمع متعددة، وهي بالنسبة للوسط القروي، بالمغرب، (ومنه منطقة الشاوية) متعددة كذلك، منها نسبة ارتفاع الدخل الفردي والوطني، ونسبة التمدرس... ومن اهمها النسبة التي اصبح الوسط القروي يمثلها بالنسبة للوسط الحضري، فمن 83 % سنة 1952، اصبحت النسبة = 56,44 سنة 1984(2). وهذا يعني ان تحولا اجتماعيا هاما طرأ على الخزان البشري في المجتمع المغربي وهو تحول لمس الوسط القروي والحضري معا ؛ واذا كان المؤشر الديموغرافي في هذا التحول يطغى على ما عداه، فان ذلك لا يعني انه المظهر الوحيد، بل انه تحول يمس جوانب اجتماعية متنوعة .

ومن معالم هذا التحول الهجرة الداخلية، اي الهجرة الى المدن. وبالنسبة لمنطقة الشاوية تعتبر الدار البيضاء، المستقبل الرئيسي للهجرة من الوسط القروي .

ان الهجرة في حد ذاتها ليست داء بالضرورة، في الحدود التي تجعلها ضمن الحركة السكانية ؛ التي هي من سمات المجتمعات البشرية ؛ فكل المجتمعات تعرف هذه الحركة ؛ وهي من دلائل حيوية ونشاط المجتمع ؛ الا انها في ظروف معينة تصبح ذات دلالات سلبية .

لقد تعرضت دراسات كثيرة متخصصة لظاهرة الهجرة، ويمكن تلخيص نتائجها بالنسبة للأفراد والمجموعات المهاجرة في الاحتمالات الثلاثة التالية :

التكيف مع البيئة الجديدة الحضرية والاندماج في علاقاتها، او الرجوع، وبالاحرى النكوص، الى العالم القروي ؛ او الحياة الهامشية في الوسط الحضري بما تتضمنه وتعرض له من شذوذ اجتماعي وانحرافات ...

ولا حاجة الى التعليق على هذه الاحتمالات ؛ ويكفي التأكيد على ان احتمال تكيف الفرد والمجموعة المهاجرة مع الوسط الجديد ليست عملية سهلة، خاصة عندما تكون الهجرة اضطرارا لا اختيارا ؛ ومن ثم فهو لا يتيسر على النحو المطلوب الا بنسبة ضئيلة ..

وفي طليعة الاسباب التي تجعل التكيف صعبا في عالم الهجرة، ان التحول يكون شاملا ومفاجئا، ويمس على الخصوص اعماق ما في الانسان وهو منظومة القيم الاجتماعية والفردية والتربوية على الخصوص .

اننا نعرض هنا لمجموعة من القيم التربوية بقدر ما يقنضيه المقام من ايجاز، لكننا نلح على اهمية التعميم الممكن لنتائج مثل هذا الاستقصاء على ما لم يذكر هنا من سائر القيم الاجتماعية التربوية وغيرها. كما نؤكد على ترابط مثل هذه القيم فيما بينها ؛ وننبه اخيرا ؛ على ما تقدمه المقارنة بين اوساط اجتماعية مختلفة لفهم وسط اجتماعي كالوسط القروي ؛ ونرى ان فهم الوسط القروي لم يعد ممكنا بمقارنة ثنائية بينه وبين الوسط الحضري ؛ بل ان الوسط (القروي الحضري) الجديد الذي اصبحت تقدمه المراكز الحضرية يقدم فرصة جيدة لفهم الوسط القروي على نحو افضل. ومن الضروري ان تتجه الدراسات الى تحليل هذا الوسط الاجتماعي .

وهذه جملة من القيم الاجتماعية التربوية مستقاة من دراسة ميدانية شملت عينات من الآباء من الدار البيضاء (كوسط حضري) وبرشيد وبيير جديد (كمراكز حضرية) ونواحيها (اولاد حريز، وشتوكة) كوسط قروي (3) .

مكانة المعلم والفقير : هذه المكانة لها اعتبارها في المجتمع المغربي عامة، والقروي خاصة ومنه منطقة الشاوية وشخصية المعلم «الحديث» يفترض انها حلت بقوة محل شخصية الفقير «التقليدي» في المجتمع القروي، بسبب عوامل موضوعية يأتي في طليعتها تعميم المرساة الابتدائية وتعتقد ان مثل هذه القيمة التربوية، مؤهلة لتؤثر على مبلغ التحول الاجتماعي في منظومة القيم التربوية في المجتمع القروي .

والملاحظ فيما يتعلق بالتقدير العالي لمكانة المعلم انها تتم بنسب مئوية متقاربة في الاوساط الاجتماعية الثلاثة القروي، والقروي الحضري (المراكز الحضرية)، والحضري، وتتراوح هذه النسب ما بين 27,50% في المراكز الحضرية (ادنى نسبة) و 32,46% في الوسط الحضري (اعلى نسبة) .

واهم ما يطرحه هذا الوضع من اسئلة هو كالتالي : لماذا لم ترق نسبة تقدير مكانة المعلم في أي وسط من الاوساط الثلاثة الى ما هو اكثر من ذلك ؟ والى اي حد تدل على تحول محسوس في منظومة القيم الاجتماعية التربوية في العالم القروي ؟

نستطيع ان نقول بالنسبة للسؤال الاول ان المتوقع على الاقل بالنسبة للمجتمع القروي ان ترتفع لديه نسبة التعبير عن التقدير العالي لمكانة المعلم، باعتبارها حلت بديلا عن مكانة... الفقيه، الذي يعتبر عادة الشخص الاعلى تقديرا في العالم القروي. وعدم حصول ذلك يعني ان هذا الاستبدال لم يصل درجة الاشباع والتشبع، ويتضح ذلك بالمقارنة مع نسبة تقدير مكانة الفقيه في نفس ظروف تقدير مكانة المعلم ؛ اذ تبلغ هذه النسبة اعلى درجة في المجتمع القروي 82 % ؛ مقابل 12 % في الوسط الحضري (ادنى نسبة) .

ويمكن ارجاع احتفاظ قيمة الفقيه بهذه الدرحة العليا في التقدير بالمقارنة مع مكانة المعلم في الوسط القروي الى ما يلي :

أ - الاندماج الكامل للفقيه في حياة القرية

ب - وظيفته التي تتجاوز تعليم الصبيان الى قراءة القرآن الكريم في المناسبات المختلفة من افراح ووفيات ومناسبات دينية ؛ بالاضافة الى وظيفته الدينية كالامامة والافتاء في قضايا الارث وغيرها ...

ج - ممارسة التطبيب وبعض انواع العلاج بالتائم والاعشاب ...

د - ممارسة مهنة الخياطة التقليدية للجلايب والسلاهم التي ارتبطت بشخصية الفقيه في منطقة الشاوية على الخصوص .

هـ - ممارسته الفلاحة والزراعة عن طريق ما يسمى «التويزة».

أما عن دلالة التحول الاجتماعي في قيمة المعلم خصوصا ؛ فكما يمكن التساؤل عن السبب الذي جعل نسبة التعبير عن مكانة المعلم في العالم القروي تقف عند حدود 30 % ؛ يمكن التساؤل كذلك لماذا لم تقل عن ذلك ؟ اي بالتالي يمكن اعتبار هذه النسبة درجة في التحول في منظومة القيم الاجتماعية التربوية ؛ ويتوقع ان ترتفع هذه النسبة في المستقبل نتيجة اندماج اكثر لشخصية المعلم في المجتمع القروي ؛ وزيادة في تقبل دوره، لا يمكن ان تصل بطبيعة الحال الى مكانة الفقيه. وبالمقابل يمكن توقع تناقص ولو نسبي في تقدير قيمة المعلم في الوسط الحضري

والى حد ما في المراكز الحضرية لاسباب لا داعي لتحليلها هنا ونشير فقط الى استقلالية المعلم باعتباره موظف الدولة، يدخل في تقدير هذه المكانة ؛ بل هو يضاف الى العوامل التي جعلت تقدير مكانة الفقيه تحظى بنسبة عالية جدا في المجتمع القروي .

مكانة المدرسة : ترتبط مكانة هذه المؤسسة «الحديثة» بمكانة المعلم من الناحية النظرية على الاقل ؛ ولا يعني ذلك بالضرورة توقع نفس النسب المحصل عليها في تقدير مكانة المعلم في الاوساط الاجتماعية الثلاثة. ذلك ان الامر يتعلق بوظيفة هذه المؤسسة ومنظور كل وسط اجتماعي ازاءها، وتحظى مكانة المدرسة بأكبر نسبة من التقدير العالي في الوسط الحضري 88,40 % مقابل اقل نسبة في الوسط القروي 36 % . ولعل مما يجعل هذه النسبة متدنية في الوسط القروي بالمقارنة مع الوسط الحضري ما يلي :

- شعور بالتعارض بين اهداف المدرسة واهداف الوسط القروي (الشغل، الانتاج...) ؛ او شعور بعجز المدرسة او قصورها عن تلبية ما يطمح اليه المجتمع القروي بصفة عامة، ويمكن القول ان مكانة هذه المدرسة، كالحال في مكانة المعلم ؛ في حاجة الى اندماج اقوى في العالم القروي ؛ كما تعتبر نسبة التعبير عن درجة تقدير مكانة المدرسة من ناحية اخرى ؛ مؤشرا على تحول في منظومة القيم التربوية اذا نظر اليها في حد ذاتها ؛ وباعتبارها مؤسسة حديثة جاءت لتحل محل المسيد او الكتاب ...

علاقة الابوين بالمعلم : تبدو هذه العلاقة التربوية ذات خصوصية في معطيات الاوساط الثلاثة، اذ ان اعلى نسبة في التعبير عن التقدير العالي لهذه العلاقة، توجد في المراكز الحضرية (الوسط القروي - الحضري) = 35 % ؛ بينما تبلغ ادنى نسبة في الوسط القروي 7 % . وكان المتوقع على الاقل أن تحوز هذه القيمة اعلى نسبة تقدير في الوسط الحضري ؛ او القروي، وذلك باعتبار ان الوسط الحضري اكثر وعيا بقيمة هذه العلاقة ؛ وباعتبار ان الوسط القروي ببساطته، وبسهولة الالتقاء بالمعلم يوفر احسن الظروف لمثل هذه العلاقات، ويبدو ان الامر على خلاف هذا التصور. اذ ان مشاغل الوسط لحضري، مشاغل الابوين خصوصا تحول دون اقامة هذه العلاقة، وربما تضاف اليها مشاغل المعلم ايضا اما في الوسط القروي، فقد يكون الوعي باهمية هذه العلاقة دون المستوى التربوي المطلوب ؛ وقد يضاف الى ذلك ان المعلم لا يجد في نفسه وظروفه ما يجعله يندمج

اندماجاً كاملاً في الوسط القروي ؛ إذ يعتمد المعلمون غالباً على مغادرة الوسط القروي نهاية اليوم الدراسي أو الأسبوع نحو المراكز الحضرية أو المدن المغربية، والتي تربطهم بها علاقات وثيقة .

ويبدو كذلك أن المراكز الحضرية تحظى بظروف أحسن في إقامة هذه العلاقة ربما يرجع بعضها إلى ضآلة الكثافة السكانية بالنسبة للمدن، وتقارب المرافق الحيوية الإدارية، بالإضافة إلى توافر ما يغري المعلمين بالإقامة، وتوطيد العلاقات .

حرية الطفل في الخروج والحركة : من المعروف أن حرية الطفل في الحركة والخروج من المنزل، تتحكم فيها عوامل كثيرة، مادية ومعنوية ؛ منها هندسة المنزل، وتوزيع الفضاء الداخلي والمحيط بالسكنى... بالإضافة إلى أساليب التنشئة التي تنهجها الأسرة، وعلى العموم فالوسط القروي، وربما بفعل العوامل الموضوعية المادية وبدرجة أقوى، يسجل أعلى نسبة في التعبير عن هذه القيمة التربوية، وهي نسبة 66,80 %، بينما يسجل الوسط الحضري أدنى نسبة وهي 36,92 % . ورغم الإيجابية الظاهرة للبيئتين الوسط القروي بخصوص هذه القيمة التربوية ؛ فإنها لا تدل بالضرورة على عمق في التحول الاجتماعي لمنظومة القيم، وخاصة المردودية الدراسية للطفل ؛ بينما يمكن القول بعكس ذلك بالنسبة للوسط الحضري والمراكز الحضرية. ولأنك أن الاطمئنان على الطفل في حركته خارج المنزل، بعدم معاناة أي تخوف من تعرضه لآخطار مادية أو معنوية كالرفقة السيئة، في الوسط القروي يساعد على لبيئتين هذا الوسط ؛ إلا أننا بالمقابل يمكن أن نسجل، أن تدني نسبة التعبير عن هذه القيمة في الوسط الحضري خصوصاً بحرص هذا الوسط على العمل المرابي للطفل في المنزل .

إشكالية مستقبل الأبناء : تعبر هذه الإشكالية عن قيمة مستقبل الأبناء من منظور الآباء ؛ ويلاحظ أن كل الأوساط الاجتماعية الثلاثة تعبر بقوة نسبية عن المعاناة من الشعور بها كمشكلة ؛ وتسجل أعلى نسبة في تقدير هذه الإشكالية في الوسط الحضري 80,81 بينما تسجل أدنى نسبة في الوسط القروي وهي 51,92 % وهي نسبة مرتفعة في حد ذاتها) .

على أن إشكالية مستقبل الأبناء كقيمة اجتماعية تربوية، لها وجوه عديدة في المقارنة بين الأوساط الاجتماعية الثلاثة ؛ وتفيد على الخصوص في التعرف على اتجاه التحول الاجتماعي في هذه القيم في الوسط القروي بالمقارنة مع غيره .

فالوسط القروي، ما يزال يهتم بمستقبل الذكور أكثر من الاناث من الاطفال، ويميل الى تعليم الذكور أكثر من تعليم البنات ؛ او متابعة الذكور للتعليم دون الاناث ؛ كما انه من ناحية اخرى وبالمقارنة مع الوسط الحضري من جهة ؛ والمراكز الحضرية من جهة اخرى ؛ اقل ميلا الى تعليم جميع الاطفال ؛ وفي هذه الاتجاهات الجزئية المرتبطة بقيم الذكورة والانوثة، نجد الوسط الحضري أكثر تقدمية في التحول الاجتماعي، لفائدة المساواة بين الذكور والاناث في سائر الاحوال .

استثمار اوقات الطفل خارج المدرسة : من الواضح الآن في ضوء التقدم التربوي، ان ما يعتقد من ان الطفل، خلال الدراسة الابتدائية على الاقل، غير قابل لان يدراية مردودية انتاجية مع عمله المدرسي، لم يعد صحيحا ؛ لكن استثمار وقت الطفل يجب ان يكون مدروسا في هذه الحال، وبخصوص قبول مبدأ اشتغال الطفل مع الدراسة واثناها، فان الوسط القروي أكثر تعبيراً عن ذلك بنسبة اعلى وهي 82،70 % مقابل اقل نسبة في الوسط الحضري 12،30 % . ان هذا الاتجاه في التعبير عن قبول مبدأ استثمار اوقات الطفل بالشغل والمردودية، رغم ايجابيته في الوسط القروي، لا يدل بالضرورة على هذه الايجابية في التحول الاجتماعي، وتطور منظومة القيم التربوية، وربما تبدو ايجابية مثل هذا التوجه في ظروف تربوية اخرى كما هو الحال فيما لو تكيفت المدرسة مع الوسط القروي، او وقع بينهما تفاعل حقيقي وظيفي على الاقل. ذلك ان الوسط القروي في تبنيه لمبدأ اشتغال الطفل خارج اوقات المدرسة، انما يصدر عن تقليد ثقافي تراثي يتجلى في المسيد والكتاب، حيث يمتزج في عمل «المحضر» الدراسة والشغل كلما دعت الظروف الى ذلك ؛ ودون ان يكون في ذلك أي شذوذ عن السائد الاجتماعي. وربما امكن ان نستنتج بالمقابل ان درجة التعبير المتدنية لدى الوسط الحضري، في قبول مبدأ استثمار وقت الطفل، رغم ظاهرها السلبي، فان دالتها ايجابية مبدئياً، في ضوء الاهتمام بتنشئة الطفل ومردودية عمله المدرسي. ومهما يكن ففي ضوء المبادئ التربوية المرتبطة بمردودية نشاط الطفل خارج العمل المدرسي فان مجرد التعبير العددي بنسبة عالية عن قبول المبدأ لا يعني بالضرورة دلالة تربوية ايجابية؛ بل ان ايجابيته لا تتعدى وجود فرصة يجب رعايتها وتحليلها للاستفادة منها في منظومة تربوية متجددة متطورة .

التشدد التربوي : ينظر الى هذه الظاهرة هنا من زاوية ارتباطها بالعمل التربوي من حيث هو قيمة، او بنوعية من ممارسة هذا العمل، وهي معاملة المعلم

للطفل ؛ ويمكن أن تُدرج بصفة عامة في اسلوب تنشئة الاطفال. فبالنسبة لنوعية المعلم المفضل او الاسلوب المفضل لدى الآباء من معاملة المعلم نجد الوسط القروي يسجل اعلى نسبة في التعبير عن تفضيل المعلم المتشدد مع الطفل، ويفسر هذا بالحرص على تكوين شخصية الطفل على نحو من الانضباط والتحصيل. فالوسط القروي يسجل نسبة 40،71 % في هذا الاتجاه، مقابل اقل نسبة في الوسط الحضري وهي 8 % ، والواقع ان انخفاض نسبة التعبير عن هذا الاتجاه الى ما دون المتوسط حتى في اعلى درجة لها في الوسط القروي، يمكن ان يُوشر على تحول في منظومة القيم التربوية لهذا الوسط، اذا اعتبرنا ان الاصل المتوقع هو قبول المعاملة المتشددة من قبل العلم (بديل الفقيه). ذلك ان شخصية المعلم في الوسط القروي، ينظر اليها من خلال المعاملة المتشددة، والعقاب بوجه خاص، ومن الملاحظ ان المعلم نفسه في الوسط القروي، وهو المتشعب حاليا بالمبادئ التربوية الحديثة، باعتباره خريج مراكز التكوين التربوي المؤهلة لهذه المهنة، يميل بدوره الى تفضيل التشدد، وممارسة العقاب، رغم علمه بمخالفة ذلك للتشريع المدرسي. ويمكن تفسير هذا الميل بتأثير الوسط القروي ذاته في المعلم ؛ او بنقص في اقبال المعلم على مهنته في هذا الوسط .

نتائج

أولا : في المقارنة العامة :

- 1 - توجد فجوة معبر عنها بالنسب المئوية في درجة التعبير الايجابي عن القيم الاجتماعية التربوية، ما بين الوسط القروي والوسط الحضري لصالح هذا الاخير مبدئيا، وتتجلى في :
 - أ - تقدير مكانة المدرسة
 - ب - تقدير مشكلة مستقبل الابناء .
 - ج - الحرص على تكافؤ الفرص التعليمية ما بين الاطفال في الاسرة الواحدة، والمساواة بين الذكور والاناث في ذلك .
 - ك - تفضيل نوعية المعاملة المرنة للطفل من قبل المعلم، وعلى الخصوص عدم تحبيذ العقاب (بغض النظر هنا عن اختلاف الاوساط الاجتماعية داخل الوسط الحضري او القروي الواحد) .

2 - تسجل نسبة تعبير إيجابية لصالح الوسط القروي مبدئيا في بعض القيم التربوية، منها :

أ - التعامل بليبرالية مع حركة الطفل في الفضاء المنزلي وخارجه .

ب - القابلية المبدئية لاستثمار اوقات الطفل خارج وقت الدراسة، استثمارا فعليا وعمليا له مردودية مباشرة .

3 - تسجل الاوساط الثلاثة درجات تعبير متقاربة عن تقدير مكانة العلم، لكنها ليست درجات عالية (نسب مئوية دون المتوسط بكثير) .

4 - يسجل الوسط القروي الحضري (المركز الحضري) درجة عالية في التعبير عن علاقة الآباء بالمعلمين، تفوق درجة الوسطين الآخرين وفي الوقت نفسه يسجل الوسط القروي انخفاضا في درجة التعبير عن هذه العلاقة .

ثانيا : في وضعية التحول في القيم الاجتماعية التربوية في الوسط القروي - الحضري (المراكز الحضرية) :

1 - يقع الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية في مرتبة بين الوسطين القروي من جهة، والحضري من جهة ثانية (تميل) احيانا الى الاقتراب من الوسط القروي، وهي في الغالب أميل الى الوسط الحضري في منظومة القيم التربوية .

2 - يتميز الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية بنسبة عالية في التعبير الايجابي عن بعض القيم التربوية مثل العلاقة بين الآباء والمعلمين .

3 - يعتبر الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية درجة في التحول الاجتماعي للوسط القروي، تمثل مظهر التحول التدريجي المتوقع في الوسط القروي .

ثالثا : النتائج العامة

1 - يمر الوسط القروي بمرحلة تحول في القيم الاجتماعية التربوية، تعبر عنها المقارنات بين الاوساط الثلاثة والتي توضح أن الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية يمثل حلقة المظهر التدريجي لهذا التحول .

2 - ايجابيات هذا التحول :

أ - ان التحول الذي يعبر عنه الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية، يترك

القروي (الفرد والجماعة) على علاقة بوسطه الاصلي ونشاطه المألوف، ومثل هذا التحول يحول دون المشاكل النفسية الاجتماعية، التي يتعرض لها القروي، فيما لو قذف به في الوسط الحضري ومباشرة، وذلك نظرا للفارق الكبير بين القروي والحضري، في تقدير القيم التربوية بوجه خاص ومنظومة القيم الاجتماعية بوجه عام .

2 - يضاف الى ذلك ان الوسط الاجتماعي للمراكز الحضرية، بما يؤديه من وظائف للوسط القروي، يشكل حائلا دون الهجرة الى المدن، (الدار البيضاء في حالة الشاوية خصوصا) .

3 - هذا التحول التدريجي للمراكز الحضرية، كما يحول دون التطور المفاجيء في حالة الهجرة الى المدن، فانه يحول كذلك دون الطفرة في التحول في عين المكان، كما هو الامر في الحالات الخاصة من التحول التي يحصل فيها التصنيع المفاجيء لمنطقة ما، حيث يفصل القروي عن حياته الاصلية وقيمه، كما تحلل ذلك دراسات عديدة(4) ؛ او كما يحدث في حالات الطفرة الاجتماعية التحولية كحالات ظهور الثروات البترولية المفاجئة في مجتمعات قروية .

رابعا : تحسين النتائج الايجابية للتحول الاجتماعي بالمراكز الحضرية : وهذا يقتضي تجهيزه بما يكفي لجعله ينمو ويشيع التنمية في المناطق القروية المحيطة به في جميع الميادين ؛ ويجعله بالتالي يغني عن التوجه أو التفكير بالتوجه الى المدينة .

خلاصة عامة :

1 - يتضح مما سبق أن نمو المراكز الحضرية، وكما نأكد لنا ذلك في دراسات اخرى(5)، اصبح جد مفيد في دراسة التحول الاجتماعي للعالم القروي ؛ واصبح يقدم من الناحية العلمية المنهجية مجتمعا مقارنا ؛ تجريبيا او ضابطا (حسب الاحوال) ؛ بما يعني نتائج الابحاث في هذا الصدد ؛ ويجعل من الضروري التوجه له بالدراسة .

2 - ما يسري على القيم الاجتماعية التربوية، يسري على سائر منظومة القيم من باب التعميم وعلى وجه الاحتمال .

3 - التحول الاجتماعي ضرورة وقانون طبيعي في المجتمع، لا يمكن ايقافه او تجميده، ولكن يمكن توقعه وتوجيهه والتحكم النسبي فيه .

هوامش :

- (1) انظر، يونسكو، (مادة تغير اجتماعي (changement Social) معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، 1975 .
- (2) مديرية الاحصاء، 1984 .
- (3) استبانات طبقت في الفترة 1983-1985
- (4) دراسات مصرية على سبيل المثال على بعض القرى، انظر كامل لويس مليكة، دراسات في علم النفس الاجتماعي، الهيئة المصرية العامة 1970 .
- (5) مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، ص 278 (اطروحة جامعية) كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط 1987/1988 .

بعض مظاهر.. تامسنا من خلال رحلة

د. محمد مفتاح
كلية الآداب - الرباط

1 . دواعي الرحلة :

نقصد بالرحلة «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» للسان الدين بن الخطيب السلماني؛ لا نريد في هذا السياق التعرض الى شخصية ابن الخطيب فهي معروفة مشهورة بين الباحثين والمهتمين مثلما شهرت حيوات الشاطبي وابن خلدون وابن الازرق وغيرهم خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

عاش ابن الخطيب هذا ما بين 776-713 هـ/1313-1376م⁽¹⁾ وما يهمننا من هذه المدة هو الجزء اليسير الذي قضاه منها منفيا في المغرب مستقرا في سلا من 764-7600 هـ ؛ ففي هذه المدة سجل ابن الخطيب انطباعاته ومشاهداته في تامسنا/الشاوية. فقد صدرت عدة ظهائر ملوكية من المتوكل على الله للعناية بابن الخطيب وتخصيص مرتب شهري له والاذن له للقيام برحلات عبر ربوع المغرب ؛ وهكذا، فحينما عزم على الرحلة الى مراكش واسفي استأذن فأذن له ؛ يقول ابن الخطيب : «ووقف تشوفي الى تجديد العهد بزيارة المعاهد المباركة والانتباز عن مظان الهرج وميادين الفتنة فصدر في ذلك ما نصه⁽²⁾ ؛ وفعلا، فقد صدر ظهير من المتوكل على الله محمد الميرسني مؤرخ بالسادس من شهر ربيع الآخر (الثاني) سنة 763 هـ. ولكنه لم ينطلق من مسكنه بسلا الا يوم السبت الثالث والعشرين (23) لربيع الآخر (الثاني) لعام 763 هـ. بيد أن هذه الرحلة لم تتم

لأسباب ذكرها ابن الخطيب ؛ أهمها المرض الذي ألم به ؛ قال : « فلما توسط تامسنا شجر بالضعف عن الحركة وأحس بأسباب المرض متفردة ومشتركة فانكفا راجعا مستعينا بالله وببركة المولى الذي عرفته رحمته وغمرت في الظعن والاقامة نعمته، خوفا من ألم يستحکم، أو مرض يسدي في هذه البنية الضعيفة ويلحم، ونرجو الله أن يقتضي لكم الدعاء من هذا الولي الذي من الله بجواره، وجعله من بركة هذا البلد وأثاره⁽³⁾ ؛ وكان الهدف من هذه الرحلة مثل سائر اهداف الرحلات المعروفة مثل رحلة العبدري ورحلة ابن رشيد.. ولذلك، فان ابن الخطيب وصف في رحلته : «المراحل والمنازل والحادي والنازل» وغير ذلك مما وقعت عليه عيناه سواء اكان بشرا ام مظاهر طبيعية او حضارية او لغوية او سياسية .

ابتدأت الرحلة يوم 23 ربيع الثاني 763 هـ / فبراير 1362 وانتهت برجوعه الى سلا في 11 رجب 763 هـ / 28 مايو 1362 م . وقد خرج من سلا قاصدا مراكش ثم غادر مراكش متوجها الى اسفي بتاريخ 23 جمادى الثانية 761 هـ / 21 مايو 1360 م . وقد سلك الطريق التي كانت تربط بين سلا/رباط الفتح، وهي طريق داخلية. ولما رجع من اسفي الى سلا/رباط الفتح سلك الطريق الموازي الى الشاطيء الى ان وصل الى تيط انقطر (عين القطر) فسار في الطريق الشاطيء .

2 - مسار الرحلة :

ما يهمننا من هذه الرحلة هو مشاهداته في «تامسنا» ومعناها بالبربرية البسيط الخالي، وهي المنطقة التي تقع بين نهري ام الربيع و«ابي رقرق» وجبال درن والبحر المحيط ؛ على انه لعهد رحلة ابن الخطيب بدأ تداول لفظ «الشاوية»، وحينما تذكر الشاوية ينصرف معناها على الاقاليم الواقعة تحت تأثير انفا (الدار البيضاء) الى تادلا، ثم بدأ الاقتطاع من اطرافها عبر الزمان الى ان صارت على ما هي عليه الآن ...

وعلى هذا، فإن لفظ «تامسنا» عام ولفظ «الشاوية» خاص ولذلك، فاننا سنجتزىء من رحلة ابن الخطيب المدعوة بـ «نفاضة الجراب» ما يتعلق بالشاوية بمدلولها الحالي او يكاد، ولحسن الحظ، فان الرحلة اعارت اهتماما كبيرا لما رآته فيها ؛ ومع هذا الاجتزاء، فإننا مضطرون الى تتبع مسار الرحلة ليقع تصور مراحلها من قبل القارئ غير المختص ؛ وأول ما تزل به :

عين غبولة التي توجد جنوبي غربي الرباط بنحو تسعة عشر كيلومترا، وقد جلب منها الموحدون الماء الى «شالا» .

- خندق هارون يقع قريبا من مكول

- دشار مكول، وربما كان موقعه بين ابن سليمان والكارّة حاليا

- ماغوس، ويسميتها بعض الرحالة دار المرابطين، وإذا كان موقعها غير معروف بالضبط، فإن مسار الرحلة يجعلها الكارّة، وإذا سارت الرحلة موازية للشاطئ فقد تكون مديونة ؛ وتحقيق الموقع يتطلب دراسات اركيولوجية معمقة وتحريات دقيقة للتعرف على المسالك التي كانت تربط بين مراكش وريباط الفتح. ومهما يكن، فإن ابن الخطيب يصفه بانه : «دشار الزاوية ومركز الخطوط المتوازنة ومناخ الرفق السارية، وحاضرة تامسنا حيث مجلس قاضيها وتشاجر ساخطها وراضيها وحمام متوضيها، دشار كبير يأكل من هري ويشرب من بير (...). الا انه على الاختزان امين، ولحفظ الحبوب ضمين (...). فاتخذ به مسجد (...). بتنافي كنف شاهده العدل...»⁽⁴⁾ ويعقب ابن الخطيب بعد النثر بابيات شعرية يضيف فيها أوصافا أخرى، وهي انه كان :

- زاوية فيها قاض وفيها مسجد

- ملتي لعدة طرق

- فيه وفرة ما يؤكل

- ماؤه غير عذب

- مكان لا اشجار فيه.

- لغة أهله مبربرة.

إن أغلب الاوصاف ترجح انه «الكارّة» حاليا، ولكن اللغة المبربرة تنميه الى مديونة حاليا او الى ما حولها، لان هذا المجال كانت تقطنه قبائل مسمودية ثم قبائل صنهاجية، وهي ذات لسان بربري .

وما تجب الاشارة اليه أن ماغوس ينتسب اليها ابو جمعة الماغوسي، صاحب «اتحاف ذوي الارب بمقاصد لامية العرب» الذي كانت ولادته سنة 950 هـ ووفاته بعد سنة 1016 هـ.⁽⁵⁾

من ترجمة هذه الشخصية يرجح أن ماغوس كانت قريبة من أنفا وخصوصا أن ابا جمعة كان يوصف بالماغوسي الصنهاجي. وكانت صنهاجة : المستقرة بتامسنا ودكالة يتكلمون البربرية مثلما اشار الى ذلك ابن الخطيب في هذه الرحلة ؛ فقد التقى بمتصوف في مستنزاية (قرب سيدي بنور حاليا) يتكلم البربرية، ووجد كثيرا من سكان آزموور يتحدثون بها. وقد سجل الحسن الوزان في وصف افريقيا

هذا الواقع نفسه ؛ يقول : «سكان تامسنا يتكلمون اللغة الافريقية، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم العرب وملاقاتهم معهم»(6) .

من خلال الحديث عن هذه الشخصية يمكن استخلاص ان ماغوس كانت مركزا أساسيا من المراكز الحضارية بتامسنا، ويمكن ترجيح موقعها بانه «مديونة» او ما يقرب منها .

- حلة سفيان : وبعد ماغوس دخل ركب ابن الخطيب الى حلة سفيان ولكنه لم ينزل عندهم لمرض الطاعون الذي كان بهم فتوجه الى :
- البروج : ونظرا لطول المرحلة التي انطلقت من الكارة او من مديونة، فانها كانت متعبة، لذلك فانه نظم هذين البيتين :

ترى لهذا السير من منتهى بناء أعضائي به قد وهى
قالوا نريد البرج قلت ارجعوا عن سهوكم جاوزت برج السهى(7)
والبروج، وقتنذ، كانت عبارة عن خيام ضخمة تجاورها برك مائية ومروج .
- مرحلة مهدي بن موسى، وهي بداية الدخول الى مجال قبائل الخلط
- دشار الزاوية الذي كان مركزا أساسيا لانه كان به شيخ قبائل الخلط مبارك الذي كان له دور سياسي كبير في دولة بني مرين .

- تيط افوران، وقد يكون يقصد به ابن الخطيب ما يدعى اليوم «بأفوران»، وكانت به حلة الشيخ ابي كثير ؛ وقد اثنى ابن الخطيب على تيط افوران بقوله : «وما ادراك ما تيط حيث الجناب الغبيط والنشر (؟) (والشرف) والبسيط والبحر المحيط. تفجرت للزلزال بها عين كما سال لجين (...). وتسلم ذروة البيوت منها قصر مشيد، أتلع منه جيد وأغرى به تحكم وتنجيد، ودارت البيوت كما نسج العنكبوت، واتجهت اليه الطرق والسموت، وعج بإزائه السوق...»(8) «فبان الخطيب يبرز من خلال هذه الاوصاف موقع تيط افوران الجامع بين الجبل والسهل وكثرة المياه ووجود بناء يدور حول قصر مشيد وملقى الطرق : طريق «الجهاد» التي سلكها ابن الخطيب، وطريق «النحاس» التي كانت تقطع رباط مسكورة، وملو لاسن، وداي وحصن تادلا، ومعدن عوام ..

هذه بعض المعالم التي مر بها ابن الخطيب في رحلته، وكانت تقع على طريق «الجهاد» التي تربط بين رباط الفتح ومراكش، وقد كان بعضها له اهمية

كبرى مثل «مكول»، و«تيط افوران»، وكان بعضها اقل اهمية، ومع ذلك فانه يجب بذل المزيد من الاستقصاء والتحري لضبط المسالك التي كانت تربط تامسنا/الشاوية بغيرها من الجهات للتعرف على المراكز الحضارية للشاوية، وللتعرف على القديم منها والمحدث .

3 - مظاهر مختلفة من خلال المرحلة

يمكن للباحث أن يتخلص عدة مظاهر مختلفة من اوصاف ابن الخطيب في رحلته ؛ واهمها :

1 - المظاهر الاجتماعية، ونقصد بها هنا الفضاء القبلي الذي كان يؤلف نسيج تامسنا/الشاوية، معلوم لدى المختصين ان هذا المظهر احتل حيزا كبيرا في اهتمام الباحثين القدامى والمحدثين ؛ فمن القدامى ابن خلدون ومن المحدثين المؤرخون الاجانب وبعض العرب. لذلك ليس في نيتي التوسع في هذه المسألة وإنما كل ما اريد ان انبه اليه هو ما ورد من معلومات حولها في رحلة ابن الخطيب المذكورة .

إن ما يستنتج منها انه كانت هناك قبائل بربرية، اذا فسرنا قوله حرفيا :
ومن لغات حوالينا مبربرة كأننا في بلاد الزنج والنبط
وبالفعل يكاد يجمع الباحثون على انه كان في مدة الرحلة قبائل بربرية، أغلبها من صنهاجة وقلها من مصمودة. كانت صنهاجة تسكن شريطا ساحليا ممتدا من سلا الى أسفي، يضيق في تامسنا ويتسع في دكالة ؛ واما مصمودة فهي قبيلة مديونة .

على ان ما نص عليه بالحرف هو قبائل سفيان العربية التي كانت تتحرك في المجال الممتد ما بين مديونة ومنزلة مهدي بن موسى شرقا، والى ام الربيع جنوبا والى تادالا في الشمال الشرقي. أما الخلط فكانت تتموقع فيما بعد مهدي بن موسى الى تيط افوران وتمتد مسهلة الى مراكش وتندحر متجهة نحو المحيط الى تخوم صنهاجة، ماثلة ما بين مراكش وأسفي وبلاد الحوز واغلبية دكالة. وفي ضوء معطيات الرحلة يمكن للباحث أن يستخلص أن «سفيان» وفروعها هي التي كانت تتوطن الشاوية وأن الخلط لم يكن لها الا النزر اليسير من مجالها ؛ على أنه لم تكن ذلك الوقت حدود قارة وانما كان هناك تداخل بين القبائل وعلاقات بينها تحكمها الآيات وصفها بعض المؤرخين والانثروبولوجيون .

حسبنا في هذا السياق ان نقدم صورة تقريبية عن فضاء القبائل وعن علاقاتها فيما بينها كما وردت في الرحلة ذات الاسلوب الادبي، يقول ابن الخطيب :

مبارك ما قدمت سفيان رغبة ولا خوف تقصير ولا سوء سيره
وان كان من لاقيت دونك أنجما فأنت على التحقيق شمس منيره
ورب صلاة قدم النقل فيها وتشرب قبل الثريد حريره⁽⁹⁾

فابن الخطيب يعتذر لمبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطي شيخ قبائل الخلط لانه قدم «سفيان» مضطرا بمسار الرحلة، وهذا الاعتذار ينبىء ان قبيل الخلط كان أكثر عددا وأشسع مجالا واهم منزلة لدى السلطة المرينية، وكان لقبائل الخلط : احدهما ابوكثير، يقول فيه ابن الخطيب :

نزلنا حلة الخط الكرام بأخت الركن والبلد الحرام
ومن يك من ضيوف ابي كثير غني بالفعل عن الكلام
وان ببوته لكما سمعنا بيوت الخيل والنعم الجسام
تظللها الفوارس بالعوالي وتفرشها الولائد بالطعام⁽¹⁰⁾

على أن الشيخ الأشهر - كان - هو مبارك بن ابراهيم بن عطية الخلطي، ولذلك نجد ابن الخطيب يوجه اليه عدة اشعار، يقول في ديباجة قصيدة كافية : «وخاطبت شيخ العرب المخصوص بالمزية لهذا العهد منبها على بر من قصده، مستعينا بجاهه من الاصحاب» وسنختار بعضا من أبياتها الدالة على المقصود، يقول :

جمع الشجاعة والرجاحة والندى والبأس والرأي الاصيل مبارك
ورث الجلالة عن ابيه وجده فكأنهم ما غاب منهم هالك
يا فارس العرب الذي من بيته حرم لها حج به ومناسك⁽¹¹⁾

ويعقب على ذلك بنثر يثبت فيه النسب النبوي الى مبارك، ويقول : «وآل رسول الله لك الآل».

وأما علاقة القبائل العربية بقبائل المصامدة الجبلية فكانت بين مد وزجر تبعا للسنوات السمان والعجاف، فقد كانت تتوسع المصامدة في ارض الشاوية لما فيها من مرعى ومحراث، وقد كانت القبائل العربية بأحلافها تصعد الى سفوح جبال درن وقت الازمة. كما كان للعوامل السياسية دور كبير في تكييف تلك العلاقة وقد سرد ابن الخطيب في رحلته نزاعا وقع بين الهساكرة وبين العرب، اذ فتك الهساكرة غدرا بشخصياتهم فقتلوا خلقا من الخلط وسفيان والعاصم والحارث. وقد ثار العرب لمن قتل منهم فخربوا كثيرا من المجال العسكري.

لم تكن الرحلة بتقديم معلومات حول المجال القبلي للشاوية فحسب، ولكنها تعرضت بجانب ذلك الى نظام عيشهم، فقد كان في «ماغوس» هري لخرن الحبوب وبثر يشرب منها، وبناء متجل في الزاوية والمسجد الذي تهكم ابن الخطيب من هندسته، ولكنه لم يملك اعجابه امام قصر «تيط أفوران». على أنه ليس في حلة «سفيان» والبروج ليس الا الخيام والاختصاص.. واما الحيوانات التي كانت تملكها الشاوية فهي الخيل والنعم.. فالخيل كانت تستعمل غالبا لتلبية حاجات الحرب والفروسية.. وكانت النعم تستغل لسد الحاجات الغذائية، يقول في حلة سفيان : «وملات الوهاد ببهمها وقلاصها يسمح اهلهما باللبن الحامض بعد ما نزع جبنه وزبده وترجح للراغب فيه زهده»(12).

ب - المظهر السياسي

ان الرحلة لا تلقي اضواء على بعض المظاهر الاجتماعية في تامسنا/الشاوية وحسب ولكنها تقدم معلومات سياسية مهمة؛ واهم ما يمكن ان يتساءل حوله هو علاقة الشاوية بالسلطة المركزية المرينية التي كانت بفاس، وخصوصا أن المرينيين كان يهمهم هذا المجال؛ فموقعه الجغرافي وغناه وقوة شكيمة ساكنته جعلته مركز اهتمام في العصور «الوسيطية»، فقد كانت قبائل الخلط تتحكم في عدة طرق استراتيجية. اهمها : الطريق التي كانت تربط بين العاصمة فاس حينئذ وبين الصحراء، وكانت تمر بهذه الطريق او المسلك المواد المجلوبة من الصحراء كالمح والذهب وغيرهما، وقطع هذه الطريق بمثابة قطع شريان القلب. والدليل على ذلك أنه بمجرد ما انقطعت المجلوبات العابرة لهذه الطريق تدهورت الحياة السياسية والاقتصادية بالمغرب. كما ان الطريق المارة من اسفي الى رباط الفتح كانت تمر بالضرورة من ارض الشاوية.. هي همزة وصل، اذن، بين الجنوب والشمال وبين الغرب والشرق. واما غناها مرعى ومحراثا فقد وصفه ابن الخطيب مما لا مزيد عليه، فبنو مرين، كانوا يسومون نعمهم في الشاوية، وكانوا في حاجة الى جباياتها، ولهذا كانت الدولة المرينية تتوود لشيوخ العرب بهذه المنطقة، وخصوصا شيوخ القبائل الخلطية، واشهرهم مبارك الخلطي الذي وقعت الاشارة اليه. فقد كان يحضر مجالس السلاطين المرينيين، وهناك التقى بابن الخطيب. يقول هذا مخاطبا مباركا : «ولقد كنت ايام جمعنتي واياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا وطوع الامل سالكا لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء والشيم الدالة على العلياء وزكاء الاصول وكرم الالباء»، وينبئنا ابن الخطيب بالاضافة الى ذلك ان مباركا ينتمي الى اسرة كانت تربطها ببني مرين علاقة المصاهرة، فقد كان

احد السلاطين المرينيين متزوجا بامرأة من اسرة مبارك، وكان يبعث بعضهم الى الاندلس رسولا، على أن هذه العلاقات الوثيقة والطيبة لم تخل من لحظات توتر، فقد كان المرينيون يجهزون جيشهم «في سبيل تمهيد وطن تامسنا، فقد كان اهله طردوا السعاة ومنعوا الجباية واخافوا السبل».

قبائل تامسنا/الشاوية كانت ركيزة اساسية للدولة المرينية وكانت ركيزتها الثانية عامر بن محمد الهنتاتي، وقد كان حلف بين عامر وبين القبائل العربي، يقول ابن الخطيب في شأن هذا الحلف واهتمام المرينيين به : «وبادر وليهم المستظهر بهم عامر بن محمد مخاطبة السلطان بالحادثة عليهم، فوصل خطابه بتخفيض البث وسد مكانهم بأولي الترشيح لرتبتهم». وقد ازداد هذا الحلف توثقا بين العرب وبين مرين وقت تولي الامير ابي الفضل كبير ولدي السلطان ابي سالم، اذ كان مبارك صاحب شورته الى ان قتله السلطان عبد العزيز مع عامر بن محمد.

ان الثابت الجغرافي والثابت الاقتصادي والثابت البشري جعلت تامسنا/الشاوية مركز اهتمام من قبل دولة بني مرين وغيرها من الدول التي حكمت المغرب.

ج . المظهر الديني :

بالاضافة الى ما تقدم، فان الرحلة تقدم بعض المؤشرات لدراسة الحركة الدينية والثقافية بتامسنا/الشاوية. ومع أن التادلي صاحب التشوف احتوى على معلومات غزيرة حول الحركة الدينية بتادلا ونواحيها فان ما اشار اليه في الشاوية هو رابطة انفا ورابطة قريبة منها قد تكون مديونة. فهل كان هذا المجال خاليا من كل نشاط ديني ؟

هل يمكن افتراض ان القبائل العربية المترحلة المتضامنة رقيقة التدين ؟ ام يمكن اعتبار هذا الفرض قائم على غير أساس، وانما كان هناك نشاط تديني وتصوفي وانما لم تسجله الكتب ؟ ان هذا الفرض تعززه بعض الدراسات الانثروبولوجية التي أنجزت على القبائل الرحل، ولكن سكان الشاوية لم يكونوا من الرحل بكل ما تعنيه الكلمة، فلم يكونوا ينتقلون في مسافات طويلة طلبا للنجعة والكلا والمرعى، كما تعززه بعض الاطروحات العرقية التي تجعل التصوف مرتبطا بعرق من الاعراق. في المغرب، وقد أبنا عدم صحة هذا الفرض.

مهما يكن، فان المصادر القديمة الراجعة الى ما قبل الرحلة سكتت عن النشاط الديني والثقافي للشاوية ما عدا ما كان في الشواطئ التي كانت مسكونة

بصنهاجة، فذكر التادلي بعضا منها، ونوه ابن الخطيب بـ «دشار الزاوية ومركز الخطوط المتوازية»، ولما اتصل بمبارك الخلطي، قال : «كان النزول بالزاوية» فإذا ما قصد ابن الخطيب الزاوية بمعناها الاصطلاحي، فإن فرض الترحل يسقط ويثبت وجود حركة دينية وإنما لم تسجلها المصادر التاريخية.

4 . خاتمة

ان المعطيات التي تقدمها رحلة ابن الخطيب خلال ديار الشاوية تبين امتزاج الاعراق في هذه المنطقة، صنهاجة ومصامدة وعرب، وتعكس دورها السياسي والاقتصادي بالنسبة للدولة المرينية.

★ هوامش :

- (1) هناك دراسات عديدة متعلقة بابن الخطيب.
- (2) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء الثالث، تقديم وتحقيق د. السعدية قاغية، ص. 68.
- (3) الكتاب المذكور، ص. 87.
- (4) الكتاب المذكور، ص. 90.
- (5) انظر روضة الاس. ص. 239.226.
- (6) الحسن الوزان، وصف افريقيا (ج 1، ص 66).
- (7) نفاضة الجراب، ص. 90 وروايتها : عن سهوم فد جرت برج السها.
- (8) الكتاب المذكور ص. 91.
- (9) الكتاب المذكور ص. 91.
- (10) الكتاب المذكور ص. 92.
- (11) ما ذكر، ص. 46.
- (12) ما ذكر، ص. 90.

روابط الزاوية الشرقاوية بقبائل الشاوية

أحمد بوكاري

كلية الآداب - مراكش

تشكل قبائل الشاوية المجال الجغرافي البشري الذي تتبلور فيه بشكل ملموس وعملي ؛ مظاهر التأثير الديني الشرقاوي.. وتتجلى بعض مظاهر هذا الاستقطاب الروحي في الوقت الحاضر من خلال جموع الزوار الغفيرة التي تحج الى زاوية أبي الجعد لزيارة قبر الشيخ محمد الشرقي وكذلك زيارة أضرحة آبائهم وأحفاده في جو تختلط فيه الطقوس الدينية ببعض المظاهر الاحتفالية الشعبية وفي غياب ادنى حس تاريخي أو ثقافي لهذه الروابط.. بما في ذلك الجهل التام بحقيقة هؤلاء الاعلام على المستوى الصوفي والعلمي.. لتبقى تبعا لذلك روابط تنم عن طبيعة التعامل الشعبي العامي مع رموز لها أكثر من دلالة في حياتها وفي تصوراتها الدينية والغيبية ..

انها الصورة القناعة المجسدة في الحاضرة.. والتي كانت من جملة الدوافع للقيام ببحث في موضوع الزاوية الشرقاوية واسس علاقاتها بالاتباع او «الخدام» كما يسمون عند اهل الزاوية وكما يفخر بها هؤلاء الاتباع.. انها على كل حال، فرصة التعرف على ما وراء المشهد والرمز.. وانه مهما كان موعلا في الطقوسية فانه يتضمن عناصر جوهريّة موضوعية تراثية وقع طمسها من طرف العامة و«ثقافة» العامة كنوع من التأثير المتبادل بين عالم له ثقافته ومصادره ومعجمه ومؤسساته.. وبين عالم يريد ان يفتح قنواته الخاصة به في اطار تعامله مع «الأخر» ؛ وان يلونه بواقعه وتطلعاته وتصوراته المرتبطة بهذا الواقع.. فجاء هذا

المزيج الذي يغري المؤرخ وعالم الاجتماع وباحث الادب والفنون وكذلك من لهم شغف باركيولوجيا الشعوب .

زاوية أبي الجعد : (1)

- بين شروط التّوطين وتطلعات الاشياخ ان تتبع اطوار تاسيس زاوية الشيخ محمد الشرقي او زاوية ابي الجعد(2) في الزمان والمكان ؛ يجعلنا نبدي تبعا لذلك جملة من الملاحظات ..

- ارتبط تأسيس الزاوية الاولى بالدير، بفترة حكم السلطان السعدي محمد الشيخ ؛ الا ان خصائص المنطقة على المستوى الصوفي بصفة خاصة، جعل هذا المشروع الشراقي يتعثر ويؤول الى الفشل ؛ ولذلك بقي الوجود العائلي والصوفي لهذه الاسرة ممثلا في زاوية الوالد الشيخ سيدي محمد بن ابي القاسم (سيدي بلقاسم) دفين القصبه التادلية(3).. ولهذا التقارب المكاني بين الزاوية والقصبه دلالاته الواضحة ..

- ان تأسيس الزاوية الثانية بوادي ابي الجعد ذي المميزات الجغرافية الغير المشجعة في اطار نوع من التحدي - على الاقل هذا ما يفهم من السياق الذي اورده محمد بن عبد الكريم العبدوني(4) - لكنه موضوعيا يسجل نوعا من التطابق بين الشيخ واطاره القبلي. وهو واقع عمل كل من شيخ الزاوية وربما حتى اجداده وكذلك الشأن بالنسبة للقبيلة الوردية الجابرية.؛ عملا معا على تجاوزه او على الاقل تحقيق نوع من التكامل الجغرافي والاقتصادي يمتد من هضبة وردية الى الاودية والشعاب التي تصب وتنحدر في اتجاه منخفض وادي ام الربيع، ومنه ان امكن نحو الدير ذي الثروات المغربية والذي شبهه العبدوني ببلاد الشام لوفرة مائها ومراعيها وجناتها ..

- لقد استطاعت الزاوية الشراوية على الاقل في مرحلة اولى ان تستفيد من خيرات كثيرة توافدت عليها من قبائل كثيرة من الاقليم التادلي حتى «فاقت بلاد الصحاري خيرا وبركة ؛ بلاد السواقي والماء الجاري» .

- ان النفوذ الروحي لشراوة مع ذلك كان اكثر ترسخا وتنوعا منه ببلاد الشاوية دون غيرها من المناطق القريبة من الزاوية ؛ والذي ارتبط بتطورات الزاوية في عهد الابناء والاحفاد واقترن تاريخيا بصعود الاسرة العلوية الشريفة الى سدة الحكم ؛ خاصة منذ عهد المولى اسماعيل الى فترة حكم المولى سليمان .. والتي عاصرها من شيوخ الزاوية :

- الشيخ محمد الصالح بن محمد المعطي(5) المتوفي سنة 1139هـ/1727م .

- الشيخ محمد المعطي(6) ابن السالف الذكر المتوفي سنة 1190هـ/1766م واشتهر بصاحب «ذخيرة المحتاج» .

- الشيخ محمد العزبي بن محمد المعطي(7) السابق المتوفي 1234 هـ - 1819 م .

اما بعد هذا التاريخ فلا نظن انه وقع تغيير حاسم في جوهر العلاقات الروحية والثقافية والبشرية بين الزاوية وبلاد الشاوية.. بدليل استمرار مظاهر ذلك الى وقتنا الحاضر .

قبائل الشاوية : كبعد جديد للنفوذ الشراوي :

ترجع اهمية الشاوية بالنسبة لموقع الزاوية الشراوية بارتباط مع محيطها القبلي التادلي الملامس للشاوية(8) الى ما يأتي .

- انها تمثل مجالا لا نتجاع قبائل وريغة ذات الصلة الوطيدة بالزاوية.. وقد تحدثت المصادر التي اعتمداها في البحث عن دور شيخ الزاوية في تيسير وتسهيل هاته العملية الحيوية في مناسبات عديدة .

- ان بلاد الشاوية تمثل الامتداد الطبيعي لطرق التجارة المتفرعة من قسبة تادلا مرورا بالزاوية في اتجاه محطات ساحلية مثل آفنا، أزمور، البريجة ذهابا وايابا.. معنى ذلك انها تكون في مرحلة حاسمة تحت حماية ورحمة هذه القبائل وان امتداد النفوذ الشراوية للمنطقة معناه توسيع مجال عملها. وبالتالي زيادة ادوار الزاوية ومداخلها .

- ان بلاد الشاوية تبدو اكثر المناطق جاذبية لنشاط الزاوية نظرا لما تمثله من تكامل بشري واقتصادي وبالنظر الى سد ابواب الدير والجبل الا في حدود ضيقة وهذا على الاقل ما سوف توضحه العديد من مظاهر النجاح والاستقطاب الصوفي الشراوي في المنطقة بالمقارنة مع مستوى هذا النفوذ بالنسبة لقبائل الدير التادلي(9) .

- بالاضافة الى ذلك فان مجال بلاد الشاوية يحتل موقعا وسطا بين احواز العاصمة الشمالية فاس واحواز العاصمة الجنوبية مراكش وان استعمال هذه البلاد كمعبر سلطاني مرغوب فيه زكى تصاعد اهمية المنطقة اقتصاديا وبشريا

واستراتيجيا وهذا على الاقل ما يفسر تعدد القصبات بها اما الداخلية او الساحلية مثل
فصبة ابن احمد وقصبة سطات وقصبة المنصورة وغيرها ..

فهل ما سبق من الاعتبارات كان كافيا لتفسير كثافة التواجد الشراوي أم ان
هناك شروط وظروف اخرى ..

الخريطة البشرية للشاوية: (10) بين التنوع ومتطلبات العيش .

تقدم لنا الخريطة القبلية للشاوية نموذجا لخليط بشري متعدد الاصول(11)..
كما اوضحت بعض الدراسات الاولى ؛ الا انها ترجع الى اصول عربية وبربرية
توافدت على المنطقة عبر فترات تاريخية متعاقبة اهمها المرحلة الموحدية..
لتختفي شيئا فشيئا بلاد تامسنا كمجال لانتجاع قبائل البربر.. وتظهر بلاد الشاوية
ذات الاصول المختلفة والتي اخذت تنصهر في بوتقة تحولات تاريخية جد حاسمة
كان من أبرزها التحول الى حياة الاستقرار او انصاف الرحل تحت ضغط عوامل
منها :

انكماش المغرب في اطار الدولة الوطنية على الاقل منذ القرن 14 م .

- سد ابواب الانسياح القبلي خارجيا بارتباط مع صعود دول مسيحية في
البحر المتوسط وفي شبه جزيرة ايبيريا منذ التاريخ المذكور في اطار ما يعرف
بـ «النهضة الاوربية» .

- تدعيم هذا الوضع من خلال التنظيم الاداري والجبائي الذي قام به
السعديون والعلويون ..

ويظهر ان العلماء والاسر الشريفة والصوفية قد ساهمت بدورها بدور بارز
في عمليات التحول هاته.. والتي لا يمكنها ان تكون خاصة فقط بالشاوية ؛ بل نجد
صورا لها في مناطق قبلية عديدة.. ويتحدد ذلك فيما يلي :

- الحد من عنف التصادم القبلي انطلاقا من اهميتهم في المجتمع ودورهم في
التحكيم والصلح .

- تدخلهم في تحديد مجالات قبلية عديدة تبعا لمهمتهم السالفة او من خلال
استقرار اسر صوفية في مناطق عازلة تكون نواة لتحديد مجال جغرافي وبشري
جديد .

- دورهم تبعا لذلك في ضمان الاحلاف والاتفاقيات القبلية ..

لكن كيف اكتسبوا هاده الاهمية ؟

- هناك عامل ظرفي : يتحدد بفترات ضعف الحكم المركزي وما يترتب عنه من اضطراب في العقول والمعاش.. بحيث دلت تراجم بعض اشياخ التصوف او الصلحاء في مناطق مختلفة على الاهمية التي يحتلونها في الابقاء على الارواح او الاقتصاد وبالتالي توفير اكثر ما يمكن من اسباب التواصل وتبادل المصالح وتأمين وسائل العيش وظروفه..

- هناك عنصر ذاتي :

ان حاجة الافراد الى «الولي الصالح» من خلال ما يرمز اليه من قداسة وما يجسده من قوى مادية ومعنوية ملاحقة للانسان في محيطه الجغرافي والثقافي وفي اطار تاريخي معين ؛ تجعله يقصد لذاته كشخص يرزق ويجر راءه اراثا من القداسة والصلاح.. فنغيب الوساطة في مدلولها التربوي الصوفي.. مادام يصعب ادراك المثل الاعلى في اطاره المجرد.. واحيانا اخرى يتم اللجوء الى رموز هذه القوى كما تسجدها المزارات والقباب والاضرحة .

إن التحرر من هذا النوع من الاستلاب المعقد يقتضي تفهما لخيوط هذا التشابك المادي والمعنوي، وفي مرحلة ارقى ازالة اسباب ودوافع ذلك على صعيد الواقع والممارسة وفي اطار مقتضيات الحاجة والضرورة ومن ثم يسهل الحوار.. حوار الثقافات والمعتقدات بارتباط وطيد مع تحولات الواقع .

انه الواقع الذي دفع بهؤلاء الصلحاء في ظرف تاريخي له خصائصه الاقتصادية والثقافية.. ان يحتلوا المكانة الهامة والخطيرة في المجتمع ؛ خاصة اذا كان هذا المجتمع من نوع المجتمعات القبلية المتعددة الاصول والمتطلعة الى الحصول على مواطن لها يكون الضمانة لوجودها وعيشها كما هو الشأن بالنسبة لقبيلة او قبائل الشاوية التي توحدت لغتها وتقاربت عاداتها وتصوراتها تحت ضغط الزاميات العيش والتساكن كما وقع اقتناعها بجدوى تواجد هؤلاء الصلحاء بين ظهرانهم كعنصر اساسي ومكمل لعناصر تالف خريطتهم البشرية ..

لكن لماذا كانت الزاوية الشرقاوية مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بهذا الدور ؟

ان تصفح خريطة للصلاح ببلاد الشاوية⁽¹²⁾ تجعل المرء يدرك مدى شمولية وكثافة التواجد الشرقاوي ببلاد الشاوية والذي اتخذ عدة مظاهر :

- قباب شرقاوية ومزارات

- عائلات شرقاوية في شكل دوواير مرابطية

- زوايا من تأسيس تلاميذ ومريدين تخرجوا من الزاوية الشرقاوية ..
لقد اشرنا سالفا إلى عوامل كثيرة رشحنها لتفسير هذا الاهتمام الشرقاوي
الخاص ببلاد الشاوية .. وهذا لا يمنع من ان نضيف الى ذلك :
- السبق التاريخي للزاوية الشرقاوية بالمقارنة مع زوايا وطرق صوفية اخرى
انتشرت فيما بعد بهذه القبائل ؛ وبصفة خاصة الناصرية .

- القرب الجغرافي بحكم مجاورة الشاوية من الناحية الغربية للعديد من قبائل
تادلة ذات الصلة الوطيدة بالزاوية وبخاصة «وردبغة»⁽¹³⁾ .
- ما كانت تمثل الشاوية من مجال بكر ومؤهل لعمل المتصوفة على المستوى
الشرعي والصوفي ويتمثل ذلك في الادوار الحضارية والتثقيفية المتمثلة في نشر
مبادئ اللغة والدين الاسلامي انطلاقا من مراكز معينة ومجسدة في شكل زوايا
تحتضن المسجد وثلة من رجال الثقافة والدين وجموع من الطلبة والمريدين ..

ولاشك اننا ندرك اهمية هذا العمل من خلال الحاجة إليه ؛ علما منا ان بلاد
الشاوية تكاد تكون فارغة من اي تجمع حضاري تثقيفي هام.. وانها بعيدة عن كل من
فاس شمالا ومراكش جنوبا ؛ وان نظرتها او توجهها الى مراكز معينة كان لهدف
اقتصادي بالدرجة الاولى (أنفا) مثلا.. كما ان هذه السواحل ومدنها تمثل خطرا
وتهديدا لعيشها واستقرارها.. مادام العدو الكافر بامكانه ان يتسرب منها.. وقد عانت
بلاد الشاوية الويلات من ذلك.. مثلها في ذلك مثل جل القبائل التي تتصل مجالاتها
بالشاطىء.. وكان للصحاء دور بارز في جهاد الكفار وتنظيم المقاومة .

اعتبارا لما سبق ؛ فسر بعض الباحثين ضعف العنصر الديني في قبائل
معينة من الشاوية بسبب واحد ؛ هو غياب هاته المؤسسات الصوفية بها..⁽¹⁴⁾ .

نود في نهاية هذه المساهمة ان نوجز بعض مظاهر التواجد الصوفي
الشرقاوي ببلاد الشاوية.. ذلك ان البحث الذي انجزناه يغطي جوانب كثيرة من
الموضوع.. ونخص هنا ذكر بعض اعلام التصوف الذين كان لهم ارتباط روحي
وتقافي واحيانا دموي بالزاوية واشياخها.. وهم :

- زاوية سيدي محمد بن سليمان باولاد زيان والتي تحولت الى سوق تجاري هام
ومنه الى تجمع حضاري يعرف اليوم بـ «مدينة ابن سليمان» .

ويعتبر هذا الشخص من كبار المتصوفة الذين تتلمذوا على الشيخ محمد
الشرقي وعاش بعد وفاته وكانت له روابط مع ابنائه. فكانت زاويته مركزا دينيا
وعلميا متقدما ببلاد الشاوية .

. زاوية سيدي حجاج بمزامرة :

هو احمد حجاج الشريف الحسين ؛ من مشاهير اصحاب الزاوية ومريديها ؛ اشتهرت زاويته بنشر تعاليم الاسلام وبكثرة الانكار .
يوجد ضريحه وسط قبائل مزامرة .

. زاوية الحاج التاغي بمزاب :

هو الفقيه الصالح الحاج التاغي الحماوي ؛ اسس زاويته القرآنية بإشارة من شيعه محمد العربي الشرقاوي وقد اشتهرت في عهد مؤسسها وفي عهد ابنائه من بعده كمدرسة لتعليم القرآن ودراسته وتفسيره في بلاد الشاوية كلها ؛ وبقيت تحتفظ بهذا الدور خلال القرن 19م بل ان ابن الشيخ محمد العربي وخليفته من بعده ؛ كان قد ارسله والده اليها ليتعلم بها ..

وتوجد هه الزاوية الى الجنوب من قصبة ابن احمد على بعد بضعة كلمترات منها .

. زاوية سيدي عبد القادر البدوي الشرقاوي :

أحد احفاد الشيخ الشرقي ؛ تخرج من زاوية والده بتادلة، وسلك طريق التصوف على يديه قبل ان يهاجر الى دكالة التي انشأ بها زاوية.. ثم بعد ذلك انتقل الى الشاوية التي بها مات ودفن ببلاد «العلوة» ويعرف قبره وضريحه بـ «سيدي عبد القادر بوخلخال» .

ومن خلال تصفح خريطة الصلاح الشرقاوي بالشاوية يتمكن المرء من ادراك مظاهر عديدة لهذه الكثافة والتي من ابرز دوافعها :

- تبرير استقرار عدد من الفرق القبلية والعشائر بتدخل الشيخ الشرقاوي لدى القبائل المجاورة لها وينطبق هذا على ما يعرف بـ «الخدام» كما ينطبق على اسر شرقاوية استقرت بالمنطقة كما هو الشأن بالنسبة «لأولاد احمد» قرب «لمذاكرة».. في حين ان «بني ابراهيم» (مزاب) يزعمون الانحدار من الفرع المرابطي الشرقاوي.. وتوجد ببلادهم حوالي خمسة عشر مدفنا لصلحاء من شرقاوة.. وهذا العدد يعتبر كافيا لاضفاء صفة المرابطية والصلاح عليهم من طرف القبائل المجاورة التي لا تتوفر على هذا الامتياز والخصوصية..

حاجة هذه القبائل الملحة والحيوية لهؤلاء الصلحاء وزواياهم انطلاقا من

اهمية الادوار التي يقومون بها في مجتمعات لها خصوصياتها البنيوية اجتماعيا وثقافيا وبارتباط وطيد مع شروط الحياة الاقتصادية لهاته المجتمعات .

- حاجة الزاوية الشرقاوية لهؤلاء الاتباع والخدام في اطار استكمال دورة الصلاح ؛ انطلاقا من رغبتها في توسيع مجال نفوذها الى مناطق اكثر حيوية واهمية في اطار اغناء تجربتها دينيا وثقافيا واجتماعيا وما يترتب عن ذلك من مسؤوليات اقتصادية وساسية في منطقة عبور للبشر والثروات كما انها تحتل موقعا وسطا بين قبطي الحركة السياسية بالبلاد اي مراكش وفاس .

- ولاشك ان الترجمة المادية الملموسة لهذه الادوار المتداخلة والمتشعبة : تتمثل في انواع الزيارات والهدايا والمداخيل المختلفة بما في ذلك اعفاء الخدام الاقربين من واجبات المخزن المركزي والجهوي.. لتصبح قبائل الشاوية من اكثر الخدام ارتباطا بالزاوية ؛ وهذا ما جعل احد ابناء الزاوية المتأخرين بصف الشاوية بالنسبة الزاوية بانها اشبه ما يكون بمخزن الحبوب والادم الذي لا ينضب وهو ما تسجله المقولة التالية : «معرفة الشاوية تجارة» !

كما ينسب الى الشيخ الشرقاوي قوله :

«اما الشاوية خمايا ومرعايا»
من الماء والمرعى

الهوامش

- (1) عنوان البحث المنشور في جزئين .
ج 1 - الزاوية الشرقاوية : اشعاعها الديني والعلمي (1985)
ج 2 - الزاوية الشرقاوية : دورها الاجتماعي والسياسي (1989).
- (2) الا ان هذه الدراسة لا تتجاوز عام 1234 هـ . 1819 م .
الزاوية الشرقاوية ج 1 الفصل الثاني من الباب الاول.
- (3) المرجع السابق ص 52 وما بعدها .
- (4) مؤلف كتاب : يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ ابي عبد الله محمد المعطي...
حول التعريف بالمؤلف والمؤلف : انظر :
- المرجع السابق : ص 21 وما بعدها وكذلك ص 224 وما بعدها .
- (5) حول التعريف به : انظر المرجع السابق : 103-107
- (6) حول التعريف به : انظر المرجع السابق : 108-110
- (7) حول التعريف به : انظر المرجع السابق : 110-113 .

- (8) انظر خريطة الاتباع والخدام :
الزاوية الشرقاوية، ج(2)، 40.
- (9) حول النفوذ الشرقاوي بقبائل الدير التادلي :
- المرجع السابق، ص 52.51.
- (10) نفس خريطة الاتباع والخدام، وكذلك القسم المخصص لقبائل الشاوية،
- المرجع السابق : ص 58.53.
- (11) احمد خالد الناصري : الاستلصا، ج 4، ص 67 وكذلك
- Casablanca et les chaouis (1915) Tome 2; p 4 et suit.
- (12) الزاوية الشرقاوية ج2، ص 40 وما بعدها.
- (13) المرجع السابق، ص 42 وما بعدها.
- (14) - Casablanca et les chaouis T.2 p 63 - 14

مقاومة سطات والقبائل المجاورة للاحتلال الفرنسي سنة 1908 (*)

علال الخبيمي
كلية الاداب - الرباط

عرفت سنة 1907 توترا خطيرا، في العلاقات المغربية الفرنسية، وقد نتج ذلك التوتر عن تزايد الضغط الفرنسي على المخزن بهدف دفعه الى قبول الهيمنة الفرنسية .

ويبدو أن الاوساط الاستعمارية، كانت تنتظر الذرائع لتتدخل عسكريا في مناطق حساسة من البلاد، وهكذا كان احتلال مدينة وجدة اثر مقتل طبيب فرنسي بمراكش في مارس 1907 .

وإذا لم تحصل فرنسا على ما كانت تريده من السلطان مولاي عبد العزيز، فانها قررت أن تستغل اي حادث جديد، لاختضاع المخزن لشروطها. وقد منحها حادث مقتل 9 عمال بمرسى الدار البيضاء، يوم 30 يوليوز 1907 الفرصة لتقرر احتلال المدينة والقبائل المجاورة .

وإذا كان الحديث عن عمليات الاحتلال والمقاومة في مجموع الشاوية مغريا، فإنني سأقصر الكلام على مقاومة سطات والقبائل المجاورة لها للاحتلال الفرنسي سنة 1908 .

ويجب أن ننبه منذ البداية الى أن، الجيش الفرنسي الذي نزل بالدار البيضاء في 7 غشت قد واجهته مقاومة عنيفة شارك فيها مجاهدون من جميع قبائل الشاوية ومن قبائل اخرى خارج الشاوية .

وقبل الحديث عن معارك سطات، يجدر بنا أن نقول كلمة عن أهمية المدينة وأهمية مجالها البشري
أهمية سطات :

كانت سطات في بداية القرن من اكبر المراكز الحضرية بالشاوية بعد الدار البيضاء. اذ كان عدد سكانها يصل الى حوالي 4000 نسمة، وكانت بها جالية يهودية هامة تتعاطى للتجارة والمخاطات مع البوادي المجاورة .

ولا جدال في ان اهمية المدينة ترجع الى موقعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب والذاهبة إليه، ومن وظيفة المرور هذه، ونظرا لتوفر الماء وغنى المنطقة، نمت المدينة انطلاقا من تأسيس قسبة عسكرية منذ عهد مولاي اسماعيل. وان كانت وظيفة المكان، اي ايواء القوافل السيارة، تجعل من سطات نزلة هامة في الطريق الرابطة بين عاصمة الجنوب مراكش وعاصمة الشمال فاس، عبر الرباط، منذ عهد سابقة لبناء القسبة. وقد صاحبت هذه الوظيفة المدينة في نموها، وظلت احيائها تحمل اسماء النزائل العديدة التي كانت تأوي المسافرين. والتجار.

كانت سطات كذلك، محلا ملائما لتخيم الحركات السطانية، وكان بها مرس كبير لخزن حبوب أعشار القبائل، هو مرس الكنينيات .

عرفت سطات ازدهارا ونفودا كبيرا بالمنطقة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ظل قائدها، الحاج المعطي بن عبد الكبير المزمزي الذي كان من القواد الكبار، الذين يعتمد عليهم المخزن في المهمات (1) .

ولقد بدأ نفوذ سطات يتراجع منذ 1903، حينما هاجمتها الجموع المنتفضة من سكان الشاوية. أما في سنة 1908، فأصبحت مسرحا لمعارك دامية بين المجاهدين وجيش الاحتلال الفرنسي .

أهمية القبائل المجاورة :

يجب التنبيه الى ان اهمية المدينة التي أشرنا اليها، ترجع - في الواقع - الى اهمية القبائل المجاورة. فالمدينة تقع وسط قبيلة المزامزة وبجوار قبائل اولاد سعيد واولاد بوزيدي واولاد سيدي بنداود وكدانة، وكانت هذه القبائل تمثل خلال القرن التاسع عشر على الاقل، نصف قبائل الشاوية، في ديوان المخزن. باضافة قبيلة زناتة الواقعة قرب الدار البيضاء ؛ من حيث دفع الواجبات وكلف المخزن. ويقابل هذا النصف الآخر المكون من قبائل اولاد حريز ومزاب ومديونة والمذاكرة واولاد علي والاعشاس والزبايدة واولاد زيان ..

وعلى كل حال، تعتبر قبائل الشاوية الجنوبية، المجاورة لسطات من اغنى قبائل الشاوية، لوفرة المرعى والتربة الجيدة، الامر الذي منحها اهمية اقتصادية كبيرة بين قبائل الشاوية .

الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي :

ولقد خاض مجاهدو قبائل الشاوية الجنوبية، كمثل اخوانهم من قبائل الشاوية الاخرى، معارك طاحنة ضد جيش الاحتلال، سواء في الدار البيضاء او في سطات. واطهر ابطالها شجاعة نادرة وبسالة خارقة في مواجهة كثافة القوة النارية ومدافع وأسلحة جيش الاحتلال(2) .

والجدير بالملاحظة أن زعماء هذه القبائل اتصلوا مبكرا، بخليفة السلطان مولاي عبد الحفيظ بمراكش، ليسرع لمساعدة الشاوية و يعلن الجهاد لطرد الغزاة. وتؤكد المصادر التاريخية، على ان زعماء الشاوية عقدوا اجتماعا يوم 11 غشت، اي بعد احتلال الدار البيضاء بأربعة أيام، وقبيل اعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بخمسة أيام، قرروا فيه حث خليفة السلطان، ليسرع الى مساعدة المجاهدين المواجهين للجيش الفرنسي النازل بالدار البيضاء. وقد كتب رسالة الاستغاثة، الفقيه البجاج المزامزي بمساعدة الفقيه بوشعيب بن عزوز. وحملها الى مراكش الحاج المامون الزيراوي والجيلاتي بن عروب العفيفي .

معارك سطات :

نصيغها في البداية الى أن القوات الفرنسية، التي نزلت بالدار البيضاء لم تتمكن من التوغل داخل الشاوية، بل ظلت محاصرة بالمدينة المخربة طيلة خمسة اشهر، اي من شهر غشت الى دجنبر سنة 1907 .

ومع بداية 1908، اضطرت الحكومة الفرنسية الى تغيير خطتها امام صمود المغاربة. ولذلك عينت قائدا جديدا هو الجنرال داماد D'Amade ، الذي سبق له ان خفر الحرب الشعبية في جنوب افريقيا (حرب البوير) .

وقد صدرت التعليمات للقائد الجديد بالقيام بهجمات في عمق الشاوية لفرض الهزيمة على القبائل في عقر دارها. وليقوم بهذه المهمة زودته بامدادات جديدة في السلاح والرجال والتموين .

ومن المهام التي كان على قائد قوات الاحتلال إنجازها اولا، هي احتلال بعض المراكز داخل الشاوية، وطرد المحلة التي أرسلها مولاي عبد الحفيظ، لتعزيز المجاهدين .

ولقد تمكنت القوات الفرنسية من احتلال مديونة ثم برشيد التي افرغها سكانها في 13 يناير. فتراجع المجاهدون مع المحلة الحفيظية الى سطات، التي اصبحت هدفا لزحف المحتلين .

معركة سطات الاولى : ذي الحجة / 15 يناير 1908 :

أراد الجنرال داماد مفاجأة المجاهدين، بهجوم سريع ومباغت، لذلك حرك قواته من برشيد بهجوم منتصف ليلة 14 يناير. وفي صباح يوم 15 يناير عبأ قواته للهجوم على المدينة في دفعتين. هاجمت الدفعة الاولى وبقيت الدفعة الثانية بقيادة الجنرال نفسه. الذي أراد الانقضااض على المغاربة في الوقت المناسب بيد ان المغاربة لم يلتحموا بالقوات المهاجمة، بل قاتلوا فوق التلال المجاورة للمدينة، ولم يلتحموا بها الا بعد أن تحركت قوة العدو الثانية، وخاصة بعد ان وصل المجاهدون من المذاكرة. كانت معركة سطات الاولى معركة قاسية دامت عشر ساعات. وقد أفضل المجاهدون المغاربة خطة الجنرال الفرنسي. فقد استغلوا الميدان بمهارة، ولم يشتبكوا مع العدو الا بعد أن دفع بقواته الاحتياطية للمعركة، وبعد ان وصلت مداوات من المجاهدين وهكذا اضطر القائد الفرنسي الى سحب قواته ليلا من المدينة، والعودة الى برشيد حيث وصلها في منتصف الليل كما خرج منها .

النتائج : وصف أحد المغاربة هذه المعركة فقال :

«كان يوم وقعة عيد الاضحى، بوجود الامداد الرحمانية كيوم فتح مكة..»
«فيا له من يوم نحررت فيه أعناق الكفرة، وابنييت عن جثتها رؤوس الفجرة، فما صخى المسلمون بأحسن من تلك الصخايا» .

إذا أشار هذا المصدر، الى خسائر الفرنسيين ؛ فالواقع ان الروايات الفرنسية، تذكر ان الفرنسيين خسروا بالفعل 30 رجلا بين قتيل وجريح، من بينهم الليونتان كروطل CROTEL الذي قتل في المعركة. الا اننا مع الاسف لا نعرف بالضبط عدد الشهداء الذين سقطوا، وعلى كل حال فقد خسر المغاربة فيما يبدو العديد من ابطالهم وعلى رأس أولئك الابطال، القرشي بن الرغاي أحد زعماء الشاوية المشهورين .

معركة سطات الثانية :

نشبت هذه المعركة، بعد هزيمة تكبدتها قوات الاحتلال في معركة لقصابي التي وقعت يوم 2 فبراير 1908. ذلك ان المحتلين هاجموا بعض الدواوير قرب زاوية سيدي المكي وفي مكان يسمى لقصابي او دار قصيبات، فاستولوا على قطع

من الماشية تعداده 2000 رأس. بيد أن قوات العدو فوجئت بهجمات مباغثة وسريعة قام بها فرسان المغاربة، الذين تمكنوا من محاصرة العدو، وافتكاك قطع الماشية، والاستيلاء على عدد منخيول الفرنسيين واسلحتهم بعد قتل وجرح حوالي 55 رجل، كان من بينهم عدد من الضباط الذين قطع رأس أحدهم. وأرسل إلى مخيم مولاي عبد الحفيظ بمشرع الشعير .

ولقد اراد داماد ان ينتقم، فتوجه بجميع قوات الاحتلال يوم 4 فبراير إلى مكان المعركة حيث خرب مساكن المغاربة، ثم زحف نحو سطات، فخلال ليلة 5-6 فبراير تحركت القوات الغازية بقضها وقضيضها على شكل مربع يغطي جبهة واسعة. وقد علم المجاهدون بهذا التحرك فناوشوه القتال، وفي الصباح نشب قتال شديد قرب سطات، امتدت جبهته حوالي 7 كلمترات .

وقد تمكنت قوات الاحتلال من افشال هجومات المغاربة، الذين تراجعوا امام نيران مدفعية العدو الكثيفة .

وتمكن الجنرال داماد من دخول سطات للمرة الثانية، بعد ان سلط عليها قذائف «الملينية» المحرقة .

وهكذا لم يتمكن الفرنسيون من دخول المدينة، الا بعد أن خربوا كل شيء في طريقهم، وبعد ان دمروا الاحياء وأجزاء من القصبه. لكن المفاجأة كانت قاسية على الجنرال . مرة اخرى. إنه لم يحقق هدفه في سحق المجاهدين، وتشتيت المحلة الحفيضية، كما أنه دخل مدينة لا يوجد فيها إلا الاشباح والكلاب التائهة بعد أن غادرها كل سكانها .

إننا لا نرمي الكلام على عواهنه، بل هاكم الشواهد، وما أجدر شهادة العدو. فقد وصف الجنرال Poul AZAN (بول أزان)، لقصبة سطات المخربة ذاكرة ان القائد الفرنسي استعرضه قواته في وسط الخرائب والصحمت ؛ أمام بعض «القطط والكلاب التائهة» وأمام بعض الاعيان المغاربة الذين اصحبهم معه .

وعلى كل حال، فقد قدر الجنرال خطورة الوضع، فيما يبدو، فقرر الخروج من سطات مرة ثانية. وعند الخروج من القصبه المخربة لم يستطع اخفاء شعوره بخيبة الامل. قال أران : «إن الجنرال ونحن خارجون من المدينة، لم يستطع اخفاء شعوره بالغم وخيبة الامل. فبعد ان نزل قرب المعسكر، مكث بعض الوقت مفكرا وسط اركان قيادته في حين كان القائد العربي، والحاج عمر يتأملانه بقلق»(3) .

كيف لا يشعر القائد الفرنسي بخيبة الامل امام هؤلاء المجاهدين الذين كانوا ينقضون كالنسور ثم يطبسون على صهوات خيولهم !.

فبعد مسيرة طويلة استغرقت 21 ساعة منها 6 ساعات بدون راحة وخمس ساعات مزن القتال، ينتهي الامر بدون تحقيق هدف الجنرال في انزال ضربة قاضية بالمغاربة على الرغم من تفوق أسلحته الساحق .

ولكن ماذا حقق المغاربة من هذه المعركة. في الواقع اذا لم يتمكن الفرنسيون من اصابة المغاربة في الصميم، فان هؤلاء بدورهم لم يتمكنوا من ايقاف زحف الغزاة او صدهم .

والجدير بالملاحظة ان المحلة الحفيظية التي أصبح يقودها القائد عمر السكتاني بطل معركة لقصابي،(4) انقسمت الى قسمين، ذهب الاول الى المذاكرة بقيادة عمر السكتاني، وعسكر القسم الثاني الى الجنوب من سطات، بقيادة مولاي المامون والشيخ البوعزاوي .

وتجدر الاشارة - كذلك - الى ان المجاهدين عادوا من جديد الى سطات، وبدأوا من جديد يهيئون لقتال الفرنسيين ويحرضون الناس على الجهاد .

اما جيش الاحتلال، الذي ضاق فشلا ذريعا في معارك سيدي عبد الكريم وبرابح وفخفاخة، فقد بدأ يسلك : حرب الارض المحروقة . إذ بدأ يخرب كل شيء ويهاجم الدواوير ويحرقها فوق رؤوس النساء والاطفال ؛ كما حدث في مذبحة سيدي الغنيمي باولاد سعيد في 15 مارس. وبعد ان نجح المحتلون في ابعاد المجاهدين الى المناطق الجبلية بالمذاكرة والاعشاش، قرروا احتلال المدينة للمرة الثالثة .

معركة سطات الثالثة :

في يوم 6 أبريل 1908، احتلت القوات الفرنسية سطات بدون قتال - لكن المحتلين تعرضوا لهجوم عنيف ليلة 7 - 8 ابريل، فنشبت معركة قاسية ابدى فيها المغاربة «شجاعة رائعة»، لكنهم لم يتمكنوا من زحزحة المحتلين. الذين ردوا هجمات المغاربة وثبتوا احتلالهم للمدينة، بتنظيم «الطابور المتحرك للمزامزة»، وبناء تحصينات للدفاع عن المدينة .

وكانت معركة سطات الثالثة آخر المعارك الكبرى التي خاضتها قبائل الشاوية الجنوبية، ضد المحتلين، وان كانت شعلة الجهاد لم تخدم بالمنطقة، وظلت

النفوس محرضة ووقعت بعض الاشتباكات في اولاد بوريزى واولاد سيدي بنداود في صيف وخريف 1908 .

وقبل ان أختتم كلامي هذا، يجدر بي أن أؤكد على أمر هام، هو أنني - لظروف منهجية - وحتى يستوعب الحاضرون كل ما أقوله او بعضه، قصرت الحديث على سطات وبعض القبائل المجاورة. ولا يعني هذا انني استنتي قبائل الشاوية الاخرى وقبائل خارج الشاوية من المساهمة في معارك سطات . وعسى ان تتاح لنا الفرصة، لنوفي ابطالنا حقهم .

أيها الاخوة، فان هدفي من هذه المداخلة، هو ابراز القيم النضالية العالية، لاجدادنا في مواجهة القوة الغاشمة للمحتل الاجنبي .

إن جهاد أجدادنا المغاربة في هذه السهول الفيحاء، لم تكن تسنده لا أدغال متشابكة ولا كهوف مستورة ولا جبال وعرة. بل ان ملاجئ اولئك الابطال، كانت هي عزة نفوسهم، وشهامتهم، وياؤهم الخضوع للمحتل الاجنبي، واسترخاسهم لارواحهم في سبيل عزة بلادهم واستقلالها .

تلك كانت همم الاجداد، فعسى ان يستلهمها الابناء، لبناء مغرب عزيز كريم، تشع منه العزة والكرامة، والقيم الانسانية النبيلة، كما كان دائما .

والسلام عليكم ورحمة الله

الهوامش

- (*) هذه المداخلة، مستخرجة من دراستنا «حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية» 1907 - 1908 المقدمة لكلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط 1985
- (1) كان الحاج المعطي المزامزي قائدا عسكريا برتبة «قائد الرحي» وسياسيا جاهرا، ولذلك كلفه السلطان مولاي الحسن الأول بالسفارة لفرنسا سنة 1989، راجع، علال ابحديمي «عواقب التدخل الاوربي بالشاوية خلال القرن التاسع عشر مجلة كلية الاب والعلوم الانسانية الرباط العدد الحادي عشر، 1985، ص. 36.32 .
- (2) اشتهر من هؤلاء الابطال، القرشي بن الرغاي الداودي على سبيل المثال .
- (3) Poul Agan, Souvenirs de CASABLANCA, Paris, 1911, P. 295 et suite -
- (4) هذا هو القائد الذي اطبق عليه الفرنسيون «القائد الاحمر» لانه كان يقود نفرا من الجنوب النظاميين Le Coid rouge الحاملين لزي احمر، زيادة على ما اشتهر به من مهارة عسكرية .

مظاهر الوعي الوطني المبكر في انتفاضة الشاوية سنة 1907

أحمد زيادي
المركز التربوي - الدار البيضاء

(سأركز تدخلني على استخلاص مظاهر الوعي الوطني المبكر في انتفاضة الشاوية أوائل غشت سنة 1907).

من الحقائق العمرانية الثابتة، التي أكدها ابن خلدون في المقدمة، أن أهل البادية كانوا في المجتمعات التقليدية يعتبرون أنفسهم مكلفين بحماية أنفسهم، وحماية أهل الحاضرة أيضا.

لكن وعي رجال الشاوية لم يقف عند حدود هذا التقليد الاجتماعي المتوارث، بل تعداه إلى الشعور الوطني العام، والتدبر الشامل للواقع، استحضروا فيهما واقعة احتلال وجدة القريبة، واعتبروا فيهما خصوصية المنطقة، وإمكاناتها البشرية، ومعطياتها الطبيعية، فأدركوا بحسهم الدفاعي الفطري، أن مدينة الدار البيضاء عتبة الشاوية السهلية، وباب المغرب، وأن مرساها إذا لم يحصن صار بابا مشرعة أمام الأعداء الغزاة.

وتذكروا تحذير السلطان لهم في دجنبر سنة 1955 من مطامع فرنسا - عدوة الاسلام وسند بوحمارة - في المغرب. والان وقد لمسوا هذه المطامع، وتبينوا هذا العداء، وتيقنوا من عجز (المخزن) المغلول بالديون والاتفاقات والمواثيق الدولية، عن التصدي للموقف، فأمّنوا بضرورة النهوض بمسؤولية الدفاع عن حوزة الوطن والدين.

في ضوء هذه الحقيقة يمكننا تفسير الخصال الحربية العالية التي اتسم بها رجال المنطقة اثناء الانتفاضة خاصة، فشجاعتهم وأقدامهم وثباتهم وصمودهم

ومبادرتهم وحيوية تداعيهم الى المعركة، وسرعة استجابتهم لها، وفاعلية اقبالهم على ترك خلافاتهم القبلية التقليدية، لم يكن وراءها ضمانات أو تأييد رسمي، أو ضغط من احد ما، أو امداد بالسلاح أو الرجال أو المال من أية جهة داخلية أو خارجية، ولم يكونوا جيشا رسميا أو نظاميا أو شبه نظامي. وإنما كان وراءها شيء واحد، لكنه سلاح لا يقل، وعتاد لا ينفد، وسند لا يخذل، هو وعيهم الوطني الاصيل الذي تسلم به من قبل أجدادهم، فاستطاعوا أن يردوا به جيوش الاحتلال الروماني ثم الوندالي، عن مدينة أنفا، فحققوا لتامسنا الاستقلال، وضمنوا لامتداداتها في جنوب الوطن وشرقها وشماله الامان والاستقرار.

إذن فأناس تضطرم في قلوبهم هذه المشاعر، وتمتلىء نفوسهم بهذه الاقتناعات، لا يمكن أن ينظروا الى نبش المقبرة الاسلامية، مجرد نظرة بسيطة رسمية استسلامية تحميها قانونيا شروط الدين الفرنسي لسنة 1905، وتهيمن عليها روح معاهدة الجزيرة الخضراء، ولا أن يعتبروها مجرد توسيع بريء للمرسى، وإنما اعتبروها اعتداء صليبيبا على حرمان الاموات المسلمين، وسكون الاحياء عن حماية الاموات خيانة لارواحهم، واعتبروها خطوة أولى لتثبيت أقدام فرنسا في المغرب، وتوسيع نفوذها في المنطقة، وتنمية المقاولات الاستعمارية بها. وكذلك كان الامر، فهذا المشروع بالذات خططه رئيس المصلحة الهيدروغرافية البحرية المهندس (رونو)، لاستخلاص أرض واسعة تمكن من توسيع المرسى وانشاء مستودع للجمارك، ومنفذته هي الشركة المغربية - وهي في الحقيقة شركة فرنسية - كان وراءها رجل الاعمال الشهير (شنيدر).

ولا يمكن أن يتقبلوا اغتصاب الاراضي لمد السكة الحديدية الى محجر الصخور السوداء، باعتباره مجرد اجراء عادي لجلب احجار الردم، وإنما اعتبروه بداية اعتداءات الكفار على ممتلكات الناس، واحتلالهم للاراضي، واعتبروا صفير (البابور) استفزازا وتحديا وإهانة لهم.

ولا يمكن أن يسلموا بأن اصدار الامر بجلوس المراقبين الاجانب مع الامناء بديوانات المغرب، ومنها ديوانة الدار البيضاء، مجرد عمل اداري، تحدد اطاره قوانين الاتفاقات، وتلزم بقبوله شروط العقود الدولية، وتطمئن على نتائجه سوابق تاريخية في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن بن هشام، وفي عهد المولى الحسن الاول، وفي عهد المولى عبد العزيز نفسه سنة 1904، وأنه لا غاية من ورائه سوى استخلاص ديون بلدانهم مباشرة من المداخل، وإنما اعتبروه اغتصابا لاموال المسلمين، وتقوية للكفار عليهم، لذلك ما أن احتل رجال القبائل مدينة الدار البيضاء، حتى جلس بعض رؤسائهم بباب المرسى، من اليوم الثاني الى اليوم الرابع للانتفاضة، يتقاضون واجب الخروج من تجار اليهود، لا لنهبه واستخلاصه

لانفسهم، ولكن للاستعانة به فيما هم في حاجة اليه كمجاهدين لمغالبة الكفار من شراء الاسلحة وغيرها.

ان انتفاضة الشاوية الشعبية لم تكن اذن عملا فوضويا، ولا اندفاعا عشوائيا، ولا عصيانا وشغبا، وانما كانت احساسا جماعيا عفويا بالخطر، ووعيا متاصلا وصادقا بحقيقة الواقع، وتقديرا حكيما لقيمة الوقائع والاحداث، وصرخة وطنية مخلصه منذرة بالمأساة.

ويتجلى تدبر قبائل الشاوية لحقائق الاحداث، واستبصارها لنتائجها، في ارهاصات الانتفاضة، وفي الاستعداد للمعركة.

فبالنسبة للنقطة الاولى كان تطور الاحداث في منطقة الشاوية يقوي الشعور المعادي لفرنسا، وينمي الاحساس بوجوب تولي الدفاع عن النفس والاهل والعشيرة والعقيدة والوطن، وبمسؤولية التدبر والمبادرة.

ففي شتنبر 1906 مر بالدار البيضاء الشيخ ماء العينين وجماعة من أتباعه المجاهدين في طريق عودتهم من فاس الى الساقية الحمراء، وقد أعطى رجاله مثلا عمليا للكيفية التي ينبغي ان يجابه بها الفرنسيون، فأهانوا فرنسيا، وهددوا اخرين، وبذلك خلق الشيخ ورجاله جوا مفعما بالعداء ضدا على فرنسا. وازداد هذا الجو توترا بعد نزول حملة مولاي الامين التأديبية بالدار البيضاء، وهي حملة لم تكن مكلفة بالدفاع عن المدينة ضد التحرشات الفرنسية، وإنما كانت حسب تصريح قائدها نفسه - مكلفة فقط «بحماية البلد من عيث الشاوية» بالرغم من أن أولي الامر كان لديهم من القوة المسلحة ما يستطيعون به - كما يقول شاهد عيان - «أن يخدموا هذه النار، وينقذوا فطرا بأكملها من اندلاعها».

وفي أجواء هذه الظروف العصبية، اضطرت كثير من القبائل الى قتل قوادها أو طردهم في يناير 1907، وحكمت نفسها بنفسها بواسطة مجالس جماعية، مكونة من الاعيان المنتخبين.

وتمرد جنود الدار البيضاء في 27 ماي 1907، مطالبين بأجورهم ومؤونتهم، واحتلوا محلات الجمرک، وظلوا ينتهبونها حتى وافق الامناء على منحهم تسبيقا لمستحققاتهم. وعادوا في 8 يونيو الى شن اضراب لمدة يومين، لنفس السبب، فاضطر القنصل الفرنسي مالبيرتي Malperty الى منحهم أجرة الشهر الاخير.

وبالنسبة للنقطة الثانية، بدأ استعداد القبائل للتحالف قبل الانتفاضة ببضعة اشهر، اي بعد التيقن من حتمية مواجهة العدو الكافر، ففي ابريل 1907 تجمع عدد كبير من القبائل حول مدينة الدار البيضاء ربما للتعبير عن استيائهم من الاخبار التي تناقلتها الركبان عن احتلال الفرنسيين لوجدة، وتحسبا لكل هجوم، واستعدادا للمدافعة.

ووجه أعيان الشاوية رسائل لقبائل المنطقة قبيل الانتفاضة، وهذه ترجمة لاحداها بتصريف عن الفرنسية :

«الى كل إخواننا في قبيلة أولاد حريز، إننا على علم بما جرى بالدار البيضاء، وبالمرسى، وخاصة اقامة بابور البر، ومجيء الروم. ان الله قضى قضاء، وعلى المسلمين انجاز، لقد قتل تسعة من عمال البابور، وحطم البابور عن اخره، والكافر الذي كان قد استقر بالمرسى غادرها مثل باقي افراد الحملة الفرنسية.

إن رجال الشاوية المجتمعين قرروا عقد تحالف لحماية الدار البيضاء وسائر بلاد الشاوية، وتأمين الطرق، وانه لمفيد أن تكونوا على علم بهذا لتقوموا بما يلزم. فبلغوا جيرانكم واخوانكم اولاد بورزق وموعدنا جميعا صباح يوم الاثنين، لابرام تحالف بين القبائل. فانشروا الخبر في الاسواق، واتخذوا الاحتياطات التي تمكننا جميعا من رص الصفوف في مواجهة كل تدخل يتم من جهة البحر، وإذا وقعت جريمة او مخالفة في أية منطقة فان دواويرها تحرق. والسلام».

1907/7/31

هذا التنظيم المحكم للانتفاضة يبرئها من كثير مما أُلصق بها من نقائص ومثالب، فقد كانت في وجه الاعتداء الاتي من جهة البحر، اي الاعتداء الاجنبي على الوطن، ولم تكن عصيانا او تمردا على السلطة الشرعية المستقرة بالمدينة، رغم مجافاتها، وسوء تدبيرها وتقصيرها في تحمل مسؤوليتها الوطنية، لذلك ظل أبطالها ذائبين في الجهاد في سبيل الله ولم يشتهروا بأسمائهم كأفراد.

ولم ينس مدبروها، في غمرة الاستعداد، وسائل كبح جماح الحماسة الزائدة، وضبط التصرفات الرعناء حتى لا تحيد بالانتفاضة عن خطها المرسوم لها، مفضلين التضحية بالعضو الفاسد على الابقاء عليه والتضحية بالقضية التي من أجلها باعوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وديارهم.

والى جانب هذا التحالف القبلي كانت هناك تحالفات وقتية علنية او ضمنية مع بعض الجهات المخزنية، بدافع وطني محض. من ذلك ثورة سكان الدار البيضاء والسلطات المحلية المخزنية معا، سنة 1904، عند جلوس المراقبين الى جانب الامناء في الديوانات. وبدء الانتفاضة بالصدام بين الافرنسيين والاهالي الذين انضم اليهم الجنود المخزنية. ومساندة امناء الجمارك واعيان المدينة وتضامنهم معهم في مطالبهم.

وقد ظهرت معارضة داخلية قوية تزعمها عدد كبير من العلماء والاشراف بدعم من بعض المسؤولين في المخزن مثل الصدر الاعظم فضول غرنيط وقائد المشور ادريس بن يعيش، وبتأثير افكار الجامعة الاسلامية.

ومن مظاهر الوعي الوطني في انتفاضة الشاوية ان زعماءها بالرغم من

استعدادهم لخوض المعركة، وروحهم المعنوية العالية، وتمكنهم في مناسبات معينة من التحكم في المدينة، لم تكن لهم مطامع خاصة شخصية أو إقليمية، وإنما كانوا يقرون السلطة الشرعية، ويحمون ظهرها، ويهيئون لها اسباب التدخل لحسم الموقف، واجتناء ثمرات جهودهم وتضحياتهم، وكانوا ميالين الى الحلول السلمية.

ومن أبرز الامثلة على ذلك أنهم ما كادوا يتبينون أمر جلوس المراقبين الى جانب الامناء وبدء اشتغال (البابور) حتى اجتمعوا قرب المدينة، وقصد وفد منهم باشا المدينة ابو بكر بن بوزيد السلوي او مولاي الامين - على اختلاف في الروايات - للمشاورة والمطالبة بتوقيف مشروع توسيع المرسى وإزالة السكة الحديدية، واخراج المراقبين من الديوانة. فاستمهلهم الى الغد، فلما جاءوا تركهم ينتظرون خارج المدينة وقتا طويلا، فاستشاطوا غضبا، وقرروا التصرف بحسب ما تقتضيه الحال، فانطلقوا يطوفون الشوارع منادين بالجهاد، ومحذرين الناس من البقاء في المدينة، ومستنهضين لهم للهجرة الى خارجها لبضعة ايام. وقصدوا السكة الحديدية فخربوها.. الخ.

وبالرغم من ذلك نراهم بعد تمكنهم من السيطرة على الموقف في مجموع المدينة، يدعون من طرف الباشا وقيادات العسكر والامناء - تحت ضغط القنصلية الفرنسية - الى المفاوضة، فيسارعون الى الاستجابة والاقتماع بوجود الاجتماع (بغرسه فنيح)، لتنظيم المقاومة والتخطيط للدفاع عن البلاد، فيفرغون أماكنهم، ويقصدون مكان الاجتماع في خارج المدينة، فيحل محلهم العسكر، ويسود الامن، وتستأنف الحياة سيرها العادي حوالي اربعة ايام.

وهكذا تسبب جنوحهم للسلم، ونكرانهم للذات، وحرصهم على تحقيق هدف واحد هو حماية المدينة ورد العدو عن البلاد، وثقتهم العمياء بالمسؤولين وتمسكهم بالسلطة الشرعية، وعملهم على الاسراع بحل المشكل، تسبب ذلك كله في ضياع مواقعهم، واخراجهم الى ظاهر المدينة، فاضطروا الى بذل المزيد من الجهد والارواح والاموال لتثبيت أقدامهم من جديد في خطوط الدفاع الامامية.

لقد أبانت الانتفاضة عن نضج قبائل الشاوية ووعيهم الوطني المبكر، وتخليها عن الكثير من العلائق القبلية التقليدية التي كانت تمزق الوحدة الوطنية، وتضعف الشعور الوطني، وترسخ العداء المجاني بيد القبائل المتجاوزة، ففتناحر مثلا حول قضية تافهة مثل الفخر بالقالب الكبير والقالب الصغير.

وإن المشاعر التي كانت تؤجج انتفاضة الشاوية مشاعر يلتبس فيها كره الاجنبي بحب الوطن، ويصطبغ فيها الدافع السياسي بالعامل النفسي، ويتلون فيها الوعي الوطني المبكر بالعاطفة الدينية الراسخة، ويلتحم فيها العامل الاجتماعي بالتلقائية الموروثة. وكل هذه العوامل كانت تعمل مجتمعة او متفرقة في نفوس

تتأجج غيرة إباء وأقداما وفداء فهبت كلها - كما يقول محمد خير فارس - «للقاء الفرنسيين في البحر، وتحرير المدينة».

لقد كانت انتفاضة الشاوية حلقة مبكرة في سلسلة المقاومة الشعبية الحديثة، أخرجتها من المحلية الضيقة، والنفرة العفوية في الدفاع عن أرض العشيرة إلى المقاومة المنظمة والدفاع المحكم عن الوطن كله، والالتحام بين سائر فئات المنطقة وعناصرها.

لهذه الأسباب تلقت التأييد والمساندة من أكبر رموز الغيرة الوطنية والحمية الدينية والمقاومة الشعبية آنذاك، أمثال الشيخ محمد الكتاني والشيخ محمد بن العربي العلوي والفقير عبد السلام السرغيني والبطل موحى وحمو الزياني، والشيخ ماء العينين وابنه أحمد الهية ورؤساء المرابطين بسوس وقبائل تادلة والقوات المغربية المرابطة بهضبتها.

والى جانب البعد الوطني اكتسبت الانتفاضة أيضا بعدا قوميا وإسلاميا فنالت عطف الجرائد المصرية وتأييدها، وخاصة جريدة (اللواء) لمصطفى كامل.

بل نال عطف وتأييد أحرار فرنسا نفسها، فقد أدان الزعيم الاشتراكي جان جوريس بشدة الاعتداء على الدار البيضاء، وطالب بالانسحاب الفوري من المغرب، وقال في ختام تدخله :

«نحن الاشتراكيون متضامنون مع الشعب المغربي في كفاحه ضد الاستعمار والعملاء وسنظل على الدوام واقفين إلى جانب أنصار الحرية في السراء والضراء».

وإذا كان احتلال وجدة في مارس 1907 لم يترتب عنه تغيير في قشرة الواقع المغربي الراكد، «فإن الذي أيقظ الدار البيضاء، وأيقظ معها المغرب كله - كما يقول الرحالة الإنجليزي آرثر لوترد - هو طلقات مدافع الاسطول الفرنسي 1907 التي كادت تحولها إلى حطام وحجارة وجنون».

إن اهتمام الفرنسيين بالدار البيضاء، هو من بعض وجوهه، تخطيط لاحتواء هذا الوعي، ومحاولة امتصاصه وإذابته في مدينة حديثة شيء لها أن تبني على أنقاض القصف والدمار، لتتسي بشكلها الجديد، وحلتها الأوروبية، وبنيتها الاقتصادية، وطابعها المغربي بالاستيطان والاندماج في الحياة الجديدة، تاريخ المدينة/الرباط، ومعالم الثغر المنيع.

إن الاسطول الفرنسي لم يستهدف بقصفه ودماره جماعة سائبة من البدو محدودة العدد والعدة والتجربة والرؤية والاهداف، ولكنه استهدف حركة جهادية منظمة، جسدت بوعياها وأشاعها الوطني حرص المغربي على استقلاله واستماتته

في الدفاع عن ارضه، واستطاعت بقوتها وتصميمها افساد تصاميمه، وعرقلة خطفه في احتلال المنطقة فالوطن.

وقد ظلت روح الانتفاضة ومغازيها حاضرة في وجدان المغاربة، تتردد في أحاديثهم وحكاياتهم وأغانيهم، وتذكر في عداد معاركهم الوطنية الحاسمة، وحتى بعد مرور حوالي نصف قرن عليها نشرت مجلة الانوار في تطوان شهادتين عنها، احدهما لشاهد عيان.

وكانت رغبتني أن أتتبع أصداءها وآثارها في الادب المغربي الحديث، والادب الشعبي، لكن الوقت لم يسعفني.

ندوة فنون الشاوية

الأساتذة المشاركون

عمر أمير
عبد العزيز بن عبد الجليل
محمد أبو حميد
محمد السرغيني عيدة

أدار الندوة :

المهدي الدليرو

مشروع لدراسة الادب الشعبي في الشاوية

عمر أمير

كلية الاداب والعلوم الانسانية II - الدار البيضاء

بدأ اهتمامنا بالادب الشعبي المغربي، منذ اواخر الستينات، منطلقين من الادب الامازيغي، نجم انواعه، ونحقق نصوصه، وندرس قضاياها، وننشر النتائج .

وبعد عشرين سنة، وما واكبها من قراءة المصادر، والبحث الميداني وإعداد البرامج الاذاعية والتلفزية حول عادات وتقاليد وأداب مختلف الاقاليم المغربية بعد كل ذلك، سجلنا ملاحظات اولية هدتنا الى الاقتناع بوجود علاقات متنوعة، بين مختلف اشكال الادب المغربي... ولكننا لم نتمكن بعد من تحديد طبيعة تلك العلاقات، او مداها، وكفينا اليوم ان نفكر بجد في مشروع ثقافي، مجاله الدراسات المقارنة... ولكي تكون النتائج في مستوى الطموح قررنا انجاز المرحلة الاولى باختيار ادب منطقة بعيدة عن سوس، ولغتها تختلف عن لغته الامازيغية... وتوفر ذلك في منطقة الشاوية التي ينتمي اليها عديد من الطلبة الذين نشرف على تأطير بحوثهم في كلية الاداب والعلوم الانسانية الثانية بالدار البيضاء .

وبعد سنتين من التركيز على الادب الشعبي في «الدار البيضاء» و«سطات» و«بن احمد» و«لحباشا»، تمكنا من جمع نصوص خاصة بمجالات : الميلاد، والعقيقة، والحبو، والمشى... وظهور الاسنان.. والقصص الشعبي... ومرددات حفل الزفاف... بالاضافة الى النصوص الشعرية، والامثال والحكم والالغاز...

- ونتيجة للتمرس بنصوص تلك الانواع، سجلنا ملاحظات جديدة من اهمها :
- 1 - كون مدينة الدار البيضاء تضم انواعا من الاداب الشعبية تختلف باختلاف اقاليم المبدعين... ويمكن ان ينجز بحث مقارن مفيد في هذا الصدد .
 - 2 - التشابه الموجود بين بعض نصوص الادب الشعبي في الشاوية وبين بعض نصوص الادب الامازيغي في سوس .
 - 3 - التشابه الموجود بين بعض الحكايات الشعبية المغربية، وبين بعض النصوص من كتاب «كليلة ودمنة» .
 - 4 - التشابه الموجود بين بعض الامثال الشعبية المغربية، وبين الامثال العربية المشرقية من العصر الجاهلي الى عهد تاليف مجمع الامثال للميداني .
 - 5 - التشابه الموجود بين بعض الامثال الشعبية المغربية، وبين بعض الامثال الشعبية الاندلسية التي درسها الدكتور محمد بنشريف في كتاب عن امثال العوام في الاندلس .

وانطلاقا من هذه الملاحظات قمنا بعمليتين، الاولى تهتم التدوين والثانية تخص التمهيد للمقارنة. فكتبنا النصوص الشعبية بالطريقة التي نكتب بها الامازيغية اذ تحل حروف العلة محل الحركات، وتفخم الحروف التي توضع نقطة زائدة تحتها... ومع ذلك نشير الى ان جدوى هذه الطريقة لم تظهر في النصوص الشعبية الاندلسية لجهلها اساسا بطريقة وكيفية النطق الاصلي... اما التمهيد للمقارنة فقد صنفنا فيه النصوص باعتبار انواع التشابه، او التناقض. ثم رصدنا العلاقات بين الادبيين : الشعبي في الشاوية، والعربي في مصادره المشرقية والاندلسية. والمغربية... مؤجلين المقارنة مع الادب الامازيغي حتى تاتينا واضحة وبالتدرج... ولتوضيح ما نقول نكتفي اليوم بتقديم بعض النماذج من انواع التشابه بين الادب الشعبي في الشاوية وبين بعض النصوص الاخرى كالامثال الشعبية في الاندلس، وامثال من كليلة ودمنة، وقصة شعبية في علاقتها بحكاية : الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

1 أمثال من الشاوية والاندلس

امثال من الشاوية	امثال من الاندلس
- ملي كاتجي كاتجرها سببية، وملي كاتمشي كاتقطاع سلاسل.	- عيدا ءاقبالات تقوها بشاعرا، عوعيدا ءادبارات ...

- لا ديدي، ولا حاب لملوك.	- لا ديدي ولا حب لملوك
- عاش خاصك ءالريان ؟ لخاتم يامولاي	- عاش خاصك ءالريان ؟ قال : خاتم وُهيمان
ءانا فران ءوقاد ب حوما.	بحال فرن ءيقوم بحارة.
تباع لكداب حتال باب دار.	تباع لكداب ل باب دار
ءيطر من لمقلا	ءيصطاد من لمقلا
فين ما كان لقمح ل رحا ءيرحل	ءاينما كان لقمح ل عين رحا ءيرجاع
ديرني بحال خوك، وحاسبني بحال عدو	صاحبني بحال ءخوك، وحاسبني بحال عدوك.
ءيلا رخص شعير، تايفلاة لحمير	ءيدا رخص شعير، غلات لحمير
كا ءيعطي لاه لفلول غير لي ما عبندو ضرس	ءيعطي لاه لفلول لمن لا عبندو ضرسين
لفكوس من صفور كا ءيتعوج	لئيس تتعوج لفقوس من باطيل
ضربني وبكا، سبقني وشكا.	ظلمني، وبكا، ومشا للقاضي وشكا
ءالمزوق من براء، اش خبارك من لداخل	بحال بورج خمام، يبيض من براء سوود من داخل
ءولاد لعروق، ماشي ولاد لخروق	تتقطع لخروق وتبقا لخولوق
فاتك لغرس قبل مارس	رقد مارس ءوءابريل، وجا في وقت حصاد شعير

لا تصحاب حتا تجرب، ولا تضرب تقرب، ءولا تغرس حتا تزرب.	حتا تجرب وزرب
--	---------------

2 - أمثال من الشاوية ومن كليلة ودمنة

أ. أمثال من الشاوية	ب. اقوال من كليلة ودمنة
ءيلا شفتيهوم رضا علينا ءوحنو علينا رف حاتهموم فينا.	كمثل الصياد والقائه الحبة للطير لا يريد بذلك نفع الطير، وانما يريد نفع نفسه
بغيت حبيبي ف شدا، ءاما ف رخا كاع ناس تجيني.	وانه كما يقال : انما الناس عند البلاء.
ضربة ب دمها، ولاء كلما ب همها.	والنصل من السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج، واشباه النصل من الكلام اذا وصلت الى القلب لم تنزع ولم تستخرج
شبكة تعابير لغربال، ز ءوتكول لو ءابو لعيون كبار	وليس للعالم ان يعيب امرؤا بشيء فيه مثله يكون كالاعمى الذي يعير الاعمى بعماه.
لخوف رجلا، ولي خاف نجا.	فاني قد علمت ان الضعيف المحترس من العدو القوي اقرب الى السلامة من القوي اذا اغتر بالضعيف واسترسل اليه.
ميات تخميما ءوتخميما، ولا ضربا بالمقص	وان العاقل يدبر اشياء، وقيسها قبل مباشرتها.

3 - حكاية : لحماما، وديب، وبلارج (*)

واحد لحماما كانت ساكنا فوك واحذ شجرا، وفين ما تببيض، يتسنا ديب

* بعد هذا النص الشعبي تأتي بنص يسببه من كتاب كليلة ودمنة.

لبايض تا يفرخ ويجي تحت شجرا، ويخلاعها :

- عالو حي وولد من ءولادك، ولا نحيمر، ونجيمر، ونطلاع ناكولك، وناكولهم.

وكاتخاف منو لحماما، وترمي ليه، ولادها.. ديما ها كاك، وهو يجي بلارج واحد نهار وكال ليها :

- ما لكي، الحماما ديما تببيضي، وعمر ءولادك ما شتهوم ؟

- كالت ليه : راه ديما، يجي ذيب، وها يكوليا وها يكوليا، وكنخاف منو ونعطيهم ليه.

- كال ليها : هاد نوبا، يلا جا عدك كولي ليه : عا حيمر، وجيمر، وطلاع، وما انا را ما نلوحش ليك ءولادي.

ملي جا ذيب، وخلاعها تاني كالت ليه داك شي لي كال ليها بلارج.. كال ليها ذيب :

- هادا ما هواش كلامك، ءوريني شكون كالو ليك ؟

كالت ليه لحماما : ءولاه ما نوريك شكون كالو ليا - وهو عا عمي بلارج - وهو يكول ليها :

- خيار.

مشا ذيب عاد بلارج كال ليه :

- راني عارض عليك غدا.

مشا عدو بلارج لكاه كاب ليه لحسوا ف صافيا، ذيب، يلق وينسرح، ءوبلارج، ملي يمد قمقومو ءيبغي ءيشرب ءينتتا ليه ف صافيا، وشي ما كلاه، ءوهوا ءيقول لذيب :

- راني بغيت نرد ليك لا عراضا، خاصك تجي عدي تاتا غدا.

دار تا هوا لحسوا ءوكبها ف لمهراز بلارج، يمد قمقومو ويشرب، ءوديب ملي ءيبغي ءيلعق ءيحركو لسانو وينسوخر.. كاليه ذيب :

- ها كاك رديتها بيا، واخا.

خاف بلارج لا يسبقو ذيب ويدير شي حاجا ويردها ليه ءهوا ءيكول ليه : واهلي علا شي خورفان عا كالبا ودينها ف واحد جنان.

كال ليه ديب :

- ءوفان هيبا، وريها ليبا..

كال ليه :

- ركب فوك ضهري، وغادي نديك تايل تم.

داه تايل فوك لبحر، وعلايه لفوك، تاولا عيبانو عالمواج لبيضا تكلب ف لبحر..

كاليه بلارج :

- واشتي دروك لخورفان فاين هيبا.

- علا رقبتي لاموني، سيبيني ءاعمي بلارج هنا،

كاليه :

- راه طيح.

كاليه :

- عاسا يا بني يا سايابني يا..

ءهو ثلوحو بلارج مالفوك، ما كال لاه ءوكبار تا كاله ف لبحر، بقاو لماج، يضربو فيه، تا يكول هاني غانخرج، وتعاود تردو لداخل، ءهوا عيبدا ءيكول :

- تسيدي محامد ءوشن، خرجني نعطيك كماش ءودراع فول :

ءوملي دفعو لماج للشط ءيكول :

صابها بويا لبوه، ما تلا عتليتاما ءولاد خوه.

ءوتعاود تردو لماج لوسط لبحر ءهوا ءيكول :

- ءاسيدي محامد ءوشن، هادي ءوتوبا.

بقي ها كاك تا عيا هلي لاحو لبحر.

2 الحمامة، والثعلب ومالك الحزين

قال الفيلسوف : زعموا ان حمامة كانت تفرخ في راس نخلة طويلة ذاهبة في السماء. فكانت الحمامة تشرع في نقل العش الى راس تلك النخلة، فلا يمكنها ما

تنقل من العش، وتجعله تحت البيض الا بعد شدة وتعب، ومشقة لطول النخلة وسمقها، وكانت اذا فرغت من النقل باضت، ثم حضنت بيضها، فاذا انقاض وادرك فراخها جاء ثعلب قد تعهد ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة، فصاح بها، وتوعدها ان يرقى اليها او تلقي اليه فراخها فتلقيا اليه، بينما هي ذات يوم وقد ادرك لها فرخان، اذ اقبل المالك الحزين، فوقع علي النخلة، فلما رأى الحمامة كثيية حزينة شديدة الهم قال لها : يا حمامة ! مالي اراك كاسفة :بال سيئة الحال، فقالت له : يا مالك الحزين ان ثعلب دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يتهددني ويصيح في اصل النخلة فأفرق منه فأطرح اليه فرخي. قال لها مالك الحزين : اذا اتاك ليفعل ما تقولين، فقولي له لا القى اليك فرخي، فارق الي وقرر بنفسك، فاذا فعلت ذلك واكلت فرخي طرت عنك ونجوت بنفسي.

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر، وأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل، فاجابته الحمامة بما علمها المالك الحزين، فقال لها اخبريني من علمك هذا ؟ قالت مالك الحزين، فتوجه الثعلب حتى اتى مالكا الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين اذا انتك الريح عن يمينك فاين تجعل راسك ؟ قال : عن شمالي، فاذا انتك عن شمالك اين تجعل راسك ؟ قال اجعله عن يميني او خلفي، قال : فاذا انتك الريح من كل مكان وكل ناحية، اين تجعله ؟ قال : اجعله تحت جناحي، قال : وكيف تستطيع ان تجعله تحت جناحيك ؟ ما اراه يتهياً لك، قال، بلى، قال : فأريني كيف تصنع فلعمري يا معشر الطير، لقد فضلكم الله علينا انكن تدرين في ساعة واحدة ما ندري في سنة وتبلغن ما لا نبلغ وتدخلن رؤوسكن تحت اجنحتكم من البرد والريح فهنيئا لكن، فأريني كيف تصنع ؟ فأدخل الطائر، رأسه تحت جناحيه، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دق عنقه، ثم قال : يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك، ثم قتله واكله.

واصح من النماذج المقدمة ان الموضوع غني، ومفيد، وواضح كذلك انه يفرض العديد من التوضيحات.. وكيفينا في هذا الملتقى ان نسير الى ذلك.. وقد نقوم بانجاز المشروع، وقد يقوم به غيرنا والهدف واحد.. والله الموفق.

موسيقى السهول المغربية

عبد العزيز ابن عبد الجليل
مندوب وزارة الثقافة - مكناس

مدخل :

تعتبر منطقة الشاوية من بين ابرز المناطق المغربية التي عرفت على مر العصور التاريخية احداثا متعاقبة منذ الفتح الاسلامي. وقد كانت هذه المنطقة حتى القرن الخامس عشر تعرف باقليم تامسنا وتعتبر ارضها الخصبة - على حد تعبير الاخباري مارمول - زهرة بلاد البربر، كما كانت تضم في القديم ما يزيد على الابعين مدينة او قرية يقطنها قوم محاربون شجعان، وتتمتع بالخصوبة والثراء.

ويقع اقليم الشاوية ما بين مجرى نهر ابي رقراق شمالا، ونهر أم الربيع جنوبا، فيما تحده شرقا مرتفعات الهضبة الوسطى ومناطق الرحامنة، غير انه بناء على ما يستنتج من الحدود التي رسمتها المصادر التاريخية والجغرافية القديمة لأقليم تامسنا فقد كان من الناحية الشرقية يغطي منطقة زعير ايضا.

ويمكن من الوجهة التاريخية تصنيف الفترات التي عاشتها منطقة الشاوية في مرحلتين : أولاهما مرحلة سيادة العنصر البربري حيث كانت وطنا لزناتة وزواغة الى ان نزل بها طريف الذي سن لاهلها عقيدة غربية ما لبث ابنه صالح ان حولها الى دين اصبح اتباعه يعرفون بالبرغواطيين. وقد ظل هذا المذهب قائما وسائدا الى منتصف القرن الخامس للهجرة. وكانت القبائل بين معتنقة لمذهبهم وأخرى خاضعة لسلطتهم، الى ان هاجمهم المرابطون بقيادة الفقيه عبد الله بن

ياسين عام 451 حيث لقي حتفه، غير ان الجيش المرابطي استمات في مقاتلتهم حتى رضوا ان يتخلوا عن غيهم ويذعنوا للاسلام.

وبعد انفضاض امر البرغواطيين، الت مدن وقرى الاقليم الى الخراب، وظلت على هذه الحال زهاء قرون الى العهد الموحيدي.

وهنا تبدأ المرحلة الثانية. وهي مرحلة تعريب اقاليم السهول المغربية بما فيها اقليم الشاوية.

وقد تمت عملية تعريب هذه الاقاليم على يد القبائل العربية التي استلحقها الملوك الموحدون بجيوشهم. فقد ذكر ابن صاحب الصلاة في كتابه «المن بالامامة» (ص 144) ان عبد المومن الكومي استلحق عددا كبيرا من عرب رياح وجشم وعدي وقبائلهم بعسكره، وانه لم يعد من حركته في افريقية التي المغرب عام 1160/555 الا وهو يجرحهم معه، فكانت على يدهم انتصارات في الاندلس حركت اقليم الكتاب والشعراء حتى قال فيهم ابو العباس الجراوي مخاطبا عبد المومن :

لوراء موسى ما فعلت وطارق زريا بما لهما من الاثار
اتممت ما قد املوه وفاتهم من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن اعارب من كل مقبم على الاخطار
اكرم بهن قبائلا اقللها في الحرب يغنيها عن الاكثار
وانظر اذا اصطفت كتائبها الى ما تحمد الكتاب في الاسطار

وفي عام 1188/584 نقل يعقوب المنصور الموحيدي بعض القبائل العربية من تونس الى المغرب فأنزل عرب رياح ببلاد الهبط وأزعار (الغرب) ما بين طنجة وسلا، وانزل جشم والاتبج بتامسنا والحوز ما بين سلا ومراكش.

فمن بطون الاتبج : كرفة ومقدم والعاصم ولطيف ودريد، ومن عناصرهم الباقية فرقة اولاد قرة في بطن اولاد رياح بالمذاكرة.

ومن جشم : بطن سفيان الذين من اعقابهم بعض العناصر بقبيلة مديونة والشاوية الشمالية، والخلط الذين ما تزال اقلية منهم مقيمة في اتحادات ابن احمد، كما نزل في تامسنا في وقت متأخر عن الاوائل بعض العناصر من زغبة الذين منهم اليوم :

- اولاد سعيد في اتحادات الشاوية بين اولاد حريز ودكالة، ومنهم اليوم اولاد عريف واولاد عبو، وكذانة.

- بني مالك، ومن بقاياهم اولاد زيان بالقرب من الدار البيضاء.

وقد استوطن هؤلاء باعدادهم الكثيفة الشاوية - او بسط تامسنا حسب التسمية القديمة - واصبح التمييز بينهم وبين القبائل البربرية الاصلية بتقديم كلمة (الولاد) على اسم القبيلة العربية مقابل كلمة (بني) بالنسبة للقبائل البربرية.

وقد خلفت هذه الهجرة العربية الطارئة على بلاد المغرب عموما اثارا بينة في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والعمران والفنون.

وفيما كانت انعكاسات هذه الاثار على الجانب الشرقي والايوسط من الشمال الافريقي سلبية كما يبدو في طمس كثير من المعالم الحضارية في كل من تونس وشرق الجزائر خاصة حين اصبح كعب وبنو زغبة - على سبيل المثال - مضرب المثل فيما يدل على النحس والشقاء، فان هذه الهجرات كانت بالنسبة للمغرب ذات ايجابيات متعددة بالرغم من جوانبها السيئة. ومن هذه الايجابيات :

- ان الموحدين استفادوا من الطاقات العسكرية لهذه القبائل فاستخدموها في حروب الاندلس.

- قيام لهجة عربية جديدة لتخاطب عامة الناس، الامر الذي وضع حدا لتداول اللهجة البربرية المحلية في خطب الجمع وفوق منابر الجوامع.

- تلاقح دماء البربر مع دماء العناصر العربية الطارئة، الامر الذي انجب اجيالا مغربية جديدة تتميز بخصوصياتها الجسمانية والفكرية.

- نشوء ممارسات ادبية وفنون جديدة، وخاصة في منطقة السهول الغربية حيث انتشرت القبائل العربية الطارئة. ويشكل ذلك خلاصة التمازج الحاصل بين المعطيات اللغوية والادبية والفنية للقبائل البربرية الاصلية والقبائل العربية الطارئة. وتتمثل هذه الممارسات المستحدثة في الاشعار والازجال والحكم والامثال والحكايات الشعبية، كما تتمثل فيما استجد من قوالب موسيقية وصيغ لحنية وانماط ايقاعية، وكذا في انواع حديثة من الآلات على الساحة الموسيقية مما لم يكن للسكان الاصليين عهد به من قبل.

وقد تواترت على هذه المنطقة فيما تلا العهد الموخدي أحداث هامة على المستوى السكاني اتجهت في مجملها الى الدفع بالعناصر البربرية الى الاستقرار بها. وتجلت ذلك في اسكان بعض القبائل من زناتة وهوارة بالشاوية من طرف المرينيين الذين كانوا يناوئون تجمعات عرب رباح في القرنين السادس والسابع، ثم في نزوح عدد كبير من قبائل دكالة الى منطقة الشاوية اوائل القرن السادس عشر للميلاد على اثر احتلال البرتغال لمدينة ازمور، وفي اعقاب المجاعات والايوبئة التي عرفتها دكالة عموما، ثم في نقل السلطان محمد عبد الله لشلوح حاحة الى أنفا

بالادالة في نطاق سياسة التعمير التي انتهجها بالنسبة للمدن الساحلية غداة تحررها من قيود الاستعمار البرتغالي .

وعلى الرغم من هذا التوجه المعاكس الذي شكل في مظهره العام - ومنذ عهد بني مرين نزوحا بربريا حديثا الى اقليم الشاوية، فان تيار التعريب بهذا الاقليم كان اقوى من ان يتزحزح عن سبيله او ان يقف في طريقه ما يوقفه. وهكذا استمر اقليم الشاوية، واستمرت معه اقاليم السهول المغربية من الغرب الاعلى وحتى حاحا جنوبا خاضعة للتأثير الذي حملته القبائل العربية الطارئة الى هذه السهول، بل سرى التعري الى اسماء القائل البربرية، واصبح بعضها يدعى العروبة نسبة .

وفيما كانت القبائل الرابضة على قمم الاطلس متمسكة بمقومات كيانها البربري، فقد سرت في القبائل المقيمة بالسهول الاطلسية حمى الاستعراب، وشاعت في تقاليدھا الادبية وممارساتها الفنية - غناء ورقصا - انماط مستحدثة من وسائل التعبير حملها العرب الطارئون معهم واستطاعوا تجذيرها في صميم الواقع الفني مثلما استطاعوا ترسيخ وجودهم العسكري في المنطقة .

وقيل ان ادخل في بيان ما استجد بالاقليم على مستوى الموسيقى والغناء لابد من الاشارة الى انه من الصعوبة بمكان محاولة اثبات وجود كيان فني شاوي يقف عند الحدود الجغرافية لهذا الاقليم. ومن هنا اجدني اميل الى القول بقيام هذا الكيان على منطقة اوسع بكثير تشمل الاقاليم المنبسطة على امتداد السهول المغربية من البيضاء وانفا شمالا الى مراكش جنوبا. ولعل انسب تسمية لهذه المنطقة هي الحوز التي تختزن اليوم على مستوى الذاكرة الشعبية رصيда غنيا، مهما تنوعت معطياته الفنية والادبية فانها تظل مشدودة الى اصول مشتركة وتشكل في مجملها وحدة متكاملة الاجزاء .

ويدو ان السكان الاصليين استقبلوا التحولات الطارئة في واقع فنونهم الموسيقية بكثير من الارتياح. وذلك لاسباب من بينها :

1 - اطمئنانهم وارتياحهم لاسلوب الاداء الذي كان يطبع غناء العرب الطارئين والذي يعتمد الصياح على عادة البدو الرحل حيث تكمن مقاييس الجمال الصوتي في صفاء الصوت، وقوته، وطول نفسه، وحدة طبقتة، وسلامة نطقه. وهذه ابرز خصائص الغناء البربري حتى اليوم كما يتجلى في «تماويث»، وهي ذاتها بعض ما يطبع أداء العيطة الحوزية .

2 - تشابه الطبقة المقامية للالحن في كل من الموسيقى الامازيغية والالحن

العربية الطارئة على المغرب في القرنين الخامس والسادس. فان الالحان لم تكن تخرج فيها عن مقامين اثنين هما المقام الخماسي الذي ساد - وما يزال - الاطلسين الكبير والصغير، والمقام الطبيعي الذي ساد السهول الغربية ومنطقة الاطلس المتوسط. وكلا المقامين يقوم على الطنين ونصفه ليس غير ولا مكان لارباع النغمة فيهما البتة .

وليس غريبا ان تتصافر القرائن بين ثنائيات الطرب الحوزي من قبيل ما فعل بوشعيب الدكالي مع رفيقه حميد العبدوي، وبوشعيب الزباني مع خدوج الزروقية، وغير هؤلاء، وبين مجموعات الغناء الامازيغي من قبيل امديازن وانشاذن واملكازن. فان التشابه البنيوي القائم بين النمطين يحمل على الاعتقاد بوجود تقاليد ضاربة في اعماق الفن الشعبي لدى القبائل الرحل خاصة. وهذه - ولا ريب - كانت احدى القواسم المشتركة بين قبائل الحوز البربرية والقبائل العربية الطارئة عليها. ولعل هذا التشابه ان يفضي الى الوقوف على ظاهرة فنية اخرى، وهي هيمنة الاداء الصوتي في المرددات الشعبية بنوعها البربري والحوزي، وذلك على حساب التغطية الآلية التي كثيرا ما تنحصر في ترجيع اصداء اللحن المغنى وقليل ما تضطلع بأداء جمل لحنية مغايرة .

في ظل هذه الاجواء والملابسات نخلص اذن الى ان منطقة الحوز عرفت منذ استقرار عرب بني هلال بها نشوء فن موسيقي جديد هو ما يمكن ان نسميه «موسيقى السهول المغربية» أو «طرب العيطة الحوزية». وهو فن يشكل خلاصة الامتزاج الحاصل بين المرددات البربرية المحلية وبين ما طرأ عليها من معطيات حملها الوافدين .

فما هي هذه المعطيات. وما ملامحها ووجوه تأثيرها ؟

يأتي في مقدمة هذه المعطيات ما حمله الوافدين معهم من الحان وأغاني بدوية كانوا ينظمونها على اشعار دارجة شبيهة بما احدهم المولدون كالمربع والخمس والمسدس واللسيم والملزومة. وهي كلها من ألوان الشعر الشعبي، لا يلتزم فيها بالاعراب، وتعصب على اشطار اربعة أو خمسة أو ستة يتحد روي أبياتها باستثناء آخرها. (فقدان وضياح المصطلحات المحلية) .

والى جانب الاغاني البدوية فقد رافق دخول عرب بني هلال الى المغرب ظهور آلات جديدة. فهذا ابن صاحب الصلاة يقول في وصف مسيرتهم نحو المغرب عام 1170/566م : انهم «كانوا يسرون على ايقاع الطبول ونغمات

الغيطات». ويدل السياق الوصفي على ان هذه الآلات كانت مما يستعملونه في حروبهم وغزواتهم. وهي ذاتها التي اتخذها الموحدون من شارات ملكهم الى جانب الالوية والرايات. واليها المح ابن خلدون عندما قال : «ان العرب كانوا منذ ان انتقلت خلافتهم ملكا يتخذون قرع الطبول والنفخ في الابواق في مواطن حروبهم ومظاهر ابهتهم المقدمة 260)» .

والى جانب هذه الآلات ذات الطابع الحربي. حمل الهلاليون معهم آلات اخرى مما كانوا يستعملونه في أغانيهم البدوية. وهي : الشبابة - وهي قسبة للنفخ اكبر من الناي - والرباب العربي - وهو ذو وترين اثنين في مقابل الرباب السوسي ذي الوتر الواحد - والدف، ولعله المربع قديما .

وقد افضى تسرب هذه المعطيات الى نشوء ظاهرة الجوق الشعبي المستعرب في مناطق السهول العربية للبلاد وهو جوق تميزه خاصيتان : اولاهما ادخال آلات تختلف في طبيعة تركيبها وطريقة استخدامها عن الآلات المستعملة في الاغاني الامازيغية، والثانية اعتماد اسلوب في الغناء يقوم على الحان خاضعة لاوزان شعرية زجلية مستحدثة .

وقد أُلح الى ذلك مارمول في كتابه «افريقيا» فذكر «أن اعراب منطقة» نوميديا... كانوا يتغنون بقصائدهم المقفاة الموزونة على أنغام الدف والعود والكمان كما يحدث في بعض الرقصات البرتغالية وان كثيرا منهم يغنون ويعزفون وينظمون في أن واحد» .

ويأتي قول مارمول هذا ليشكل شهادة عيان لما أصبحت عليه هذه الموسيقى في النصف الثاني من القرن العاشر (959 هـ/ 1552 - 1559م). فقد حدثت تغيرات في تشكيلة الجوق تتجلى في الآتي :

- دخول آلة العود حاضرة الجوق. اما الكمان فالغالب انه يقصد به الفيول، وهي احدى صور الرباب العربي في مرحلة من مراحل تطوره نحو الكمان .
- انقطاع العمل بالشبابة التي ترسخ استعمالها في المجموعات الامازيغية .

ويشبهه خلو الطرب الحوزي من آلات النفخ واقع جل الانماط الموسيقية التراثية بالمغرب والتي هي اليوم لصيقة المدن والحواضر بما فيها الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون وطرب الحوز ذاته، حيث لا مكان الا لآلات النقر والوتر .

ومجمل القول هنا فان الآلات التي تصاحب العيطات مرورا بالشاوية ودكالة والرحامنة وعبدة لا تخرج اليوم عن فئتين هما : النقرية وهي : التعريجة والطاراة والهندقة، ووظيفتها ضبط الميزان، وحث المغنيات على السرعة عند نهاية العيطة، فيما يعرف بالكباحي - وهو الغناء الحاد - والحضاري والسوسي والحريزي. وهي كلها خاصة بقبائل الشاوية .

الفئة الثانية : الوترية وهي : الكمنجة التي تستبد بفن العيطة من بين الآلات الوترية الاخرى، على ان بعض المطربين لم يترددوا في فسخ المجال لالة العود. وبوشعيب البيضاوي كان واحدا من هؤلاء القلائل الذين شذوا عن التقليد الموروث .

يرى الدكتور عباس الجراري أن كلمة «العيطة» تعني النداء من عيط اذا نادى وصاح. ولا ريب أنها استعدت اسمها من ظاهرة الصياح الذي يكاد يبلغ احيانا الندب والنحيب والذي نلمسه في مد الصوت وفي جرات الكمنجة. اما الباحث الفرنسي الكسيس شوتان فيرى ان العيطة عبارة عن غناء يدوي ذي ايقاع ثنائي احيانا وثلاثي احيانا اخرى .

والعيطات انواع منها : العيطة الزعرية والحوزية والحضارية والرجالية. على انها جميعا تنتسب الى مجموعتين هما المرساوية والملائية .

اما الملائية فمكانها بني ملال والمرتفعات المجاورة لها وبعض نواحي تادلا. وهي تجنح - حسب ادريس الادريسي في كتابه «كشف الغطا عن سر الموسيقى» (ط الرباط والندب، كما تقتبس من اللهجات البربرية لبعدها عن المراكز الحضرية واعتصامها بالمناطق الجبلية المجاورة لبني ملال .

اما العيطة المرساوية فهي اجمل فنا والطف صناعة وذلك لالتصاقها بالمراكز المتمدنة وشيوخا بين القبائل المقيمة بالسهول المنبسطة. وكلاهما تتميز بظاهرة مشتركة وهي ان دور الغناء فيها موكول الى النساء دون الرجال. ولقد بلغ من ولع حملة الوتر في هذا اللون من الطرب الشعبي بايثار النساء في انشاد العيطات على انواعها ان لجأ بعض الرجال الى تقليد النساء صوتا واداء ولباسا وكان بوشعيب البيضاوي ابرز هؤلاء المتأنتئين .

وتعتبر منطقة الشاوية - وقلبها سطات - مركز العيطة المرساوية .

وقبل ختام هذا العرض لابد من الاشارة الى موضوع الكلمات التي تشاد عليها العيطة، فلطالما نعنت بانها مبتذلة يستحي المرء من ذكرها او سماعها لما

تتضمنه من معاني السفه حتى عن لبعض الادباء ان يجروا ادوارها في الشعر العربي الفصيح .

وقد ناقش الدكتور الجراري في «القصيدة» هذه المحاولة فرأى «ان الاحتفاظ بفن من الفنون يقتضي الاحتفاظ بأداته وأداة العيطة هي اللغة الشعبية... كما رأى ان تأليف كلمات لغناء شعبي يدوي كالعيطة ينبغي ان يستوحى البيئة التي تطرب لهذا الغناء وتتذوقه حتى تنسجم الكلمات مع اللحن ويتجاوب المطرب وجمهوره مع هذا اللحن وتلك الكلمات».

ومهما يكن فان العيطة اشبه ما تكون بالقصة المفتوحة والتي يظل موضوعها بكيفية مستمرة عرضة للتحوير والزيادات، ويهمن فيه الارتجال الحر للناظمين، يزيدونه ثراء ونماء ويفرغون فيه ما يعترض حياتهم من مآسي وافراح وما يجيش في نفوسهم من آماني وآمال، حتى بات من العسير الوقوف على المؤلفين الحقيقيين للعيطات المتداولة .

ومهما قيل عن العيطة فان من الحق الاعتراف لبعض نماذجها - بالرغم من قلتها - بانها وفقت الى معانقة موضوعات جادة. وخير مثال على ذلك قصيدة الحاجة الحمداوية التي يستحث فيها الناظم هم الناس على مقاومة الاستعمار حيث يقول :

خوتنا يااسلام هزوا لنا الاعلام
زيدوا بنا لقدام ايلا خيايت دابا تزيان

وقبل الحمداوية بسنوات قليلة انشد بوشعيب البيضاوي قصيدة في نفي جلاله المغفور له محمد الخامس وعودته الى الوطن حيث قال في الحضر على مؤازرة رجال المقاومة .

ايا خوتنا المسلمين عينوا الفدائيين
ولو ابلكلام الزين ينصرهم رب العالمين
كما قال مشيدا بعودة الملك :

ارجع احبيبي للرباط والناس تحييه بلغوات
حبوا الملك الشجيع هو الامرا جميع

وبعد. فاذا كان يعقوب المنصور الموحدى قد ندم في يوم من الايام على ثلاثة امور كان منها نقله عرب بني هلال الى السهول الغربية لما احدثوه من فوضى واضطراب بالبلاد، فان قدوم هؤلاء الى هذه المنطقة كان من ورائه ظهور فن

موسيقى مغربي جديد هو موسيقى السهول او العيطة الجوزية بكل ما يحمله هذا النموذج من خصوصيات تميزه عن غيره من أنماط الموسيقى المغربية سواء على صعيد الكلمة أو اللحن أو الاداء .

الاهزوجة والحوار ما بين تسغيرت والدير ابتداء من القرن السادس الهجري

محمد أبو حميد
استاذ باحث في الثقافة الشعبية - آسفي

أيها السادة الكرام

أتوجه بالشكر والتهنئة الى البادرة الوطنية الحقّة (الالتفاتة الى فنون الشاوية) وبالتصفيق لوزارة الشؤون الثقافية، والهيآت المنتخبة والسلطات في اقليم سطات. لان مناظرة تارودانت وتوصياتها لا يمكن ان تبلغ اهدافها الا في مسار من هذا القبيل ولعل (ملتقى فنون الشاوية الاول) لن يتوقف عند هذه البذرة الاولى فالعمل اليوم ما هو الا منطلق نحو عملية آمل أن تكون ضخمة بضخامة الموضوع، عملا على مسح الموروث الشعبي المتداول، والذي عملت ايدي آئمة على الكيد له ضمن مخطط استعماري طويل المدى هدف الى النيل من الشخصية المغربية التي برزت وقويت على مدى حقبة طويلة من الموروث الحضاري تعطيها شخصيتها المتميزة .

والبادرة ايها السادة تأتي في مكانها سيما وان الكتابة المغربية بعد الاستقلال لم تشرع بعد في وضع سياسة فاعلة للتنقيب والوصف والتدوين فالموروث الشعبي الذي تعرض لكثير من العواصف لم يلتفت اليه بالمعيار والاداة الملائمة الا في عجلة كما فعل الاستاذ عبد الله كنون، وشيخنا محمد المختار السوسي في المعسول، حيث يقول في مقدمته إن تدوين الموروث الشعبي هو من تبعاتنا الوطنية حتى وان تطرق الى وصف مستهجن، لان عدسة المصور حينما تلتقط فانها لا تميز بين الغث والسمين فالعناية بالموروث الشعبي تتطلب العمل الميداني المتواصل والاستشفاف الدقيق اضافة الى حمولة من الادوات لازمة جدا من بينها الثقافة التاريخية والعين الحذرة والقدرة على الحوار، والمصطلحات كما هي متداولة .

ويشير (فرانز فانون) في هذا الباب، الى ان اداة الاستعمار عملت من جملة ما عملت في مخططاتها على تبهيت ثقافة الشعوب المستضعفة بالقاء البديل المفتعل وتقديم قراءات مستهجنة تفيض بالتحريف للموروث الشعبي، حتى اذا ما انبرى ابناء تلك الشعوب بعد الانعتاق الى نفض ما تكس من غبار. تعاملوا مع الامر بادوات مستوردة هي من قبيل العمل الاستعماري وان كانت النية وطنية حسنة. لذلك وحسب ما يرجى من بلوغ الهدف الوطني الحقيقي ومن اجل رأب الصدع الذي يقيم قطيعة بين الموروث واستمرار نشوئه وترعرعه، التأقلم المغربي الصرف مع المسعى، حتى تصبح ابداعاتنا الفنية ذات جذور حقيقية تضمن قاعدة للاستمرار في انماء التراث. ان غناءنا ورقصنا ومسرحنا وهندستنا وفنوننا التشكيلية وأزجالنا المعاصرة، كلها تعاني من خلل يحسه حتى غير المتمرسين لان الركام لم يرفع بعد عن المنجم الزاخر : غناء شرقي تقريبا رقص كذلك مسرح اغريقي موليري، تشكيل معينه ما افرزه عهد النهضة الاوربي وما تلاه تكعيب وفهدية وتحد للواقع. وللتصحيح ايها السادة لابد من ادوات، اولها التغيير العلمي، لفهمنا الوطني في ميدان الموروث .

إن تراثنا الشعبي بصفة عامة هو حصيلة لتعامل متطور يقاس بمئات السنين وهو في نفس الوقت الطابع الذي يميز شخصيتنا الوطنية ويمدنا بزخم الاعتزاز بالنفس والا لكننا اي شيء. من هذا المنظار تشيع بيننا روح من التمسك بهذا الموروث والغيرة عليه، وتصبح القضية اخلاقا وطنية واجبة .

ثانيا الغاء ما يدخل في الحكم المسبق ومن استهجان لغنائنا ورقصنا وبساطنا القديم، بما ضم من شعر وحوارات هزيلة لان الامر يتعلق بثقافة شفاهية متداولة لا تعتم ان تكون زادا للمستقبل .

اخرت كعنوان لمساهمتي المتواضعة في هذا الملتقى الطامح «الاهزوجة والحوار ما بين تسغيرت والدير ابتداء من القرن السادس الهجري» كي اتجول معكم قليلا عبر هذا الموروث الشعبي الذي نحن بصدد الغيرة عليه. تسغيرت هي الضفة الجنوبية لنهر ام الربيع. والدير هو منطقة تادلة وما يدخل فيها. الابعاد : الاغنية والحوار بالعربية والحوار والاغنية باللهجة البربرية .

بين المنطقتين نصادف ما يلي :

- 1 - الغناء الموزون المركب : المرساوي
- 2 - الغناء المسترسل : الزعري الخريكي
- 3 - الغناء الصوفي : الساكن

4 - البروالة : المستجدات في الغناء الزياني

5 - الحوار الثنائي : ويدخل في الموروث الشعبي لبطاط ان الانطلاق من الضفة الجنوبية في هذا العرض يتوخى الظروف التاريخية السلالية، لكل المنطقة واسمحو لي ان احدد السلالة في العناصر الصنهاجية البربرية الاصلية والقبائل العربية الهلالية الوافدة. وما نتج عن ذلك من تداول في مجالات كثيرة نفرد القول منها لجانب الموروث الشعبي، والمسلم هنا ان البطن الغربي ما بين الشاوية ودكالة بمحاذاة ام الربيع الساحل المحيطي، عرف بعد ما عمر وحدث فيه الاسكان البشري ممارسات تراثية صنهاجية شبيهة بالمتبقي من الاحيدوسات والاحواش المعروفة الى يومنا، مع بعض التغيير اضافة الى كثير من المأثور الشعبي الذي يعتمد اما الحوار الثنائي، او الفردي. وكان الشعر غداء روحيا قبليا يساير المعاناة لدى الفردي. وكان الشعر غداء روحيا قبليا يساير المعاناة لدى العشائر، ومن ذلك كان للشاعر المكان المتميز حتى انه في بداياته يجبر على التجوال بمقولاته المترجلة الموزونة بين القبائل المجاورة يحمل الكلمة باغراضها وابعادها فاما ان يعود غانما او لا يعود. كما كان الحال في حوض السوس وما جاوره شمالا وجنوبا وشرقا الى عهد قريب .

وللبحث في الموضوع ليس لدينا الا الميدان وقياس الشيء على الشيء .

★ ابتداء من القرن السادس الهجري عرفت المنطقة متغيرات شتى تلت المتغيرات التي رافقت المرابطين ورباطاتهم، والموحدين وتحركاتهم العسكرية، التي توخت ترتيب الامن، وظروف اخرى يضيق المجال عن ذكرها استدعت دخول الحرب الهلاليين، وانتشارهم في كثير من جهات البلاد. نورد منها مناطق دكالة بشقيها من جنوب تامسنا الى شمال تانسيفت .

ان وصول العرب الهلاليين، وما نالوا من حظوة لدى دولة الموحيدين خاصة في عهد ابي يعقوب المنصور، حظوة ادارية، وعسكرية، وتنطع العناصر الصنهاجية، غيب العنصر البربري، وعسكرية، وتنطع العناصر الصنهاجية، غيب العنصر البربري في كثير من الممارسات وانحسرت الاحواشات والاحيدوسات وانكمش الشعر البربري نحو الشرق من تسغيرت الى وادي العبيد، واصبحنا امام حركة سريعة للتعريب غناء وشعرا ورقصا، فجاءت المأثرات ركيكة بذينة والغناء هزيلا وتحول الرقص الجماعي الذي تقاسمه الجنسان منذ القديم الى رقص من نوع آخر غيبت فيه المرأة تدريجيا حتى اختفت وحل محل الاحواش ما عرف فيما بعد بالرمي وهي من (الرماية) او الهوير . من فصائل (الرمي) الحمادات - عبيدات الرمي - لهوير .

1 - الحمادات : غناء رجالي في شكل احواش بجميع مقوماته، يغني الشاعر بيتين من اربعة أشطار بصوت (تينور) تردد المجموعة عجزه مرتين، ويدخل الايقاع الشبه الخماسي بالصينية والبندير، ايقاع مهزوز شبيه بسوسيات احواش مصاحب بتوقيع الاقدام وهكذا، مع غياب التطور الايقاعي المعروف في الاحواشات .

2 - الرمي نمط من الهازيج ذات الشعر الوحيد المعنى اي تغيب فيه وحدة الموضوع يعرف ببومقلع مثال .

داوداوي امول لبلاد

داوداوي هذا لعباد

بعون الله هما وسياد

والايقاع اقلل مهزوز شيئا ما تتوخاه مواويل شبيهة بما يعرف (بتمماويت)، والمقصود هنا ببمقلع ترديد المنشد للصدر واجابة المجموعة بالعجز .

3 - اما لهوير وهي فرق ما تزال في ازدهارها الكامل لعلها تطور لكل من الرمي والحمادات مع شعر بومقلع، في تنائية الى خماسية مصحوبة بالآلة النفخية المعروفة بالمكرونات. وهي عبارة عن زمارتين احدهما (اليسرى) اقصر تنتهيان ببوق، وتمكن من تركيب السلم الموسيقي السباعي المعروف. والادوات بنادير وتعاريج ومقص ومكرونات .

ويلعب الخوازي رجل بلباس امرأة. دور الراقص الرشيق الذي يستطيع بتوقيعات القدمين الاستغناء عن الايقاعيين الاخرين .

والنماذج الثلاثة صور مختبرية للتحويل نحو الاغنية (البروال) والبروال هي اغنية رتيبة ذات ايقاع متوسط لا يتغير وزنها الشعري ولاقالها اللحني، كان تأليفها مرتجلا جماعيا، ينم عن ذلك بساطة التعبير والوزن وغياب وحدة الموضوع والدلالة على الخاطرة الانية مثال :

عودك جواد على ربيع الواد

عودك الشهب ما ييرد كلب

بعث لدعهم باش بذلتيه

وانتظر البروال طويلا كي يستوي ويصبح تقليدا متداول .
○ بعد ذلك ضمت براويل الى بعضها، بنفس الاسلوب مع اختلاف في القوالب اللحنية والايقاعية واوزان الشعر مثال : (عيطة كبت الخيل) التي مطلعها :

تكا عمرو

على أهلو
غدره بني عمو

كبت الخيل

على الخيل

قيادة الشاوية

موتا وحدا هي

(لازمة متغيرة)

ومن اجل الربط بين البروالين استعملت كلمات او جمل رابطة تعرف
ب (حطة) مثال : أخويا / أو اسيدي ركبت خيل لعشية) وبذلك تصبح العيطة كما
يلي :

اغنية مركبة من اجزاء كل جزء اذا قام بذاته، يكون بروالا، واذا ضمت الى
بعضها بواسطة روابط تسمى (حطات) وتأخذ شكل عطية وتتركب العيطة من
جزئين الى سبعة اجزاء ترتبط فيما بينها بحطات او بفرش موسيقية (الفراش)
اشارة لحنية من العازف تستلقت انتباه المغني الى الانتقال الى الجزء الثاني. مثال :
عيطة :

ارجانا في العالي مرساوية

ارجانا في لعالي ارجانا في العال

اغريب ابراني

سبحان اللي خلقك سبحان اللي خلقك

او صورك في بالي

آبابا (لازمة)

ايها السادة لقد تعمدت اعطاء نموذجين من العيطة من صميم فنون الشاوية
فالمرساوي نشأ في الشاوية بعد ان استكمل شخصيته في خدر الراويل، وما من
عيطة في المرسي او الحصبا او الحوز لم تثمر في بيت او ابيات الى الشاوية
امثلة :

1 - في عيطة سيدي احمد الحصباوية

العمالة اكواتني

اوزادت مايبا

الشاوية اكواتني
اوزادت مايبيا

2 - في عيطة الجاليني مرساوية

بويا لغليمي خضر الدفف
اللي زار ايولف

سطات بلادي زين الرباط
لغليمي في الوسط

وإذا كانت عيطة دامي قد ترعرت في از مور .

فان عيطة الجاليني الانيقة هي من افرازات الغناء في الشاوية وهي آخر ما
ظهر من عيوط ومن عجائبها ان قلبها الايقاعي على ايقاع (مارش)

★ ووقوع الشاوية بين زعير وورديفة وتامسنا. والحوز يجعل تراثها الغنائي
تراثا حيا مستمر التلاقح والتمازج، ويفتح المجال ايضا لظهور مجموعات للحوار
المسرحي الثنائي (البساط)

النموذج : قشبل وزروال

بالطبع وجود ثنائي قشبل لا يعتبر من قبيل الصدف، فالقبائل الهلالية التي
وفدت بالاتها الموسيقية التي نورد من بينها الدق والهراج والليرة والملاحم السردية،
التي كانت تعتمد التناقضات الكريمة والبخيل، الاسود والابيض الطويل القامة
والقصيرها .

وتعتبر تقنية قشبل وزروال في عروضها تقنية اصيلة تعتمد آلات الكنبيري
والبندير، فقط وسيلة لشد الانتباه واستقطاب السمع، ومعظم مواضيع الحوار تكون
في اول امرها ارتجالا، تستقي من المحيط القريب. الى جانب ذلك كان المحاور
الفرد الواحد وقد عرفت به منطقة الشاوية ودكالة يضع حوارا يعتمد التناقضات
الاجتماعية. ودراسة النموذجية لازمة من اجل وضع اسس لمسرح مغربي
متطور، وظهور الثنائيات الناجحة والفاشلة منها اليوم ما هو الا استمرار
للمنودجين وسر فشلها او نجاحها عائد الى الاحاطة الكافية بتقنيات ذلك .

★ مثال ثنائي : باز وبزيز / مهيول والسفاج جدير بالذكر أن مهيول والسفاح
فطنوا الى دور الالة في شد الانتباه والاسماع، واعتمدوا التركيز على التناقض
الاجتماعي كأسلافهم في هذا الميدان .

★ الساكن ويعتمد الغناء المتحمس الصوفي الذي كان يمارس في المواسم الدينية والزيارات المتوالية للاضرحه، المنبثه في جميع البلاد .

وأشهر عواصم هذا الفن مدينة ازمور على الخصوص، التي تعرف بساكن اشعبيات وما يدخل في تصنيفه. والمضمون الشعري اذكار تتغنى بامجاد الاولياء في العبادة والتجهد والجهاد، ومن اشهر السواكن (العمرانية) و(بن يفو) ولغليبيين الى آخره ..

وتطور الساكن من حيث الادوات حتى اصبح يؤدي في آخر مراحلها بالكمان والعود، وان كانت حلاوته تبقى مع العزف (بالاقصاب) الناي الطويل .

الفنون والصناعات التقليدية بالشاوية

محمد السرغيني عبدة
مدير مدرسة الفنون الجميلة - تطوان

ما من جماعة بشرية سواء كان ذلك في الحواضر او في البوادي في الجبال او الصحاري الا وكانت لها فنون وحرف تقليدية تميزها وتطبع شخصيتها. لقد قدس المغاربة القدماء الارض شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المجتمعات الزراعية في كل بقاع الدنيا، وعبر كل العصور وهو تقديس يعزى الى ارتباط الحياة بما تنبت الارض من زرع وفاكهة وأشجار وما تخفي من معادن وكنوز فيستخرجها الانسان لسد حاجاته من خلال عمل جماعي، تعاوني ليساهم كل فرد في العائلة في الانتاج والابتكار، ومن هذا المنطلق نشأت الفنون الشعبية والحرف الفنية التقليدية وتكونت جماعات حرفية في الجبال والوديان والصحاري وهكذا تميزت بلادنا عبر التاريخ بعبقرية فنية خلاقة استطاعت على ممر الاجيال خلق اسلوب فني له مقاييسه الجمالية ينفرد بها ويبرز الشخصية المغربية. ولم يكن ذلك الا بفضل الشعور الفني العميق الذي يشعر به المغاربة، فامكن بواسطة ذلك اعداد اجيال الصناعات المهرة الذين خلدوا باعمالهم تراثنا الحضاري الذي وجب علينا المحافظة عليه والعناية به وبمقوماته الروحية.

هذه المحافظة كانت الحافز الامين على الاستمرارية من اب الى جد، فكان التلقين ضمن جماعات عرفية داخل المدينة وعبر القرى ولنا امثلة كثيرة تنطق بها المآثر التاريخية والقطع الفنية التي تزخر بها المتاحف.

والمغاربة كباقي الشعوب اعطوا من فنهم واخذوا عن فنون الغير فلقد تأثر المغاربة منذ فجر التاريخ بالقرطاجنيين والرومان وغيرهم من الشعوب التي عايشوها فاخذوا من الغير الرسم ورقم الثياب وزخرفة الاقمشة، ونسجها، وتطريزها برسوم واشكال فحولت فيما بعد تلك المعطيات الى رموز كما تأثروا بالفن الاندلسي بسبب الوافدين على المغرب من الاندلس فعملوا النقش والتطعيم الخشبي ونسج الحصر بالالياف النباتية والزرابي التي حملها الفينيقيون الذي وطأوا الساحل المغربي. كما تعودوا على الرسم المعروف «بالحرقوس» والنقش بالحنى، والوشم واعتبروهما رموزا لحمايتهم من الارواح الشريرة وعلى الرغم من تشبثهم بالارض وارتباطهم بالحيوانات فامتنعوا خاصة بعد اعتناقهم الدين الاسلامي رسم الصور الادمية والحيوانات واتخذوا التعابير الجمالية في اشكال هندسية بمربعات، ومثلثات وخطوط، فتحولت الى نجوم وطلاسيم تشهد بها في القطع الفنية المختلفة التي تميز الفن المغربي الاصيل.

لقد امتاز المغرب بحكم هذه الطاقة الخلاقة بالتكيف مع الفنون والمهن المستوردة ودمجها في الفن المغربي الاصلي الموروث على الاجداد، واستطاعوا ان يتلقوا كل الاساليب، والتقنيات من الفنون الاخرى وتوظيفها بحداثة عجيبة مع الحفاظ على الانماط والعناصر الجمالية البربرية، واستطاعوا خلق توازن بين الاشكال الفنية وتكييفها مع الاسلوب المحلي. فكيف امكن ذلك؟ وكيف استطاع ان يساير الفنان المغربي هذا التطور عبر العصور بالتكيف مع مؤثرات الحضارات المتعاقبة دون المس بالجواهر الفني الاصيل الذي يعتبره الاستمرارية والبقاء؟ امكن ذلك بفضل المعطيات التي تهبه بكل سخاء العناصر الضرورية للخلق والابتكار مستمدة من موارد معدنية، ونباتية وصناعية فجاءت الفنون والحرف المغربية متعددة الجوانب، مختلفة الطرز، منفردة الاسلوب، جميلة المنظر، جيدة المنهجة..

ولم تخل جهة من بلادنا الا وكانت للفنون والحرف الاصيلة ظهور بارز، رغم التقلبات والهزات العنيفة، فاستطاعت ان تتغلب على هذه العقبات، وكتب الله لها البقاء والاستمرار الى يومنا هذا لتنتقل الى المستقبل باسم بكل اطمئنان، لان الفنان المغربي كان ولا يزال يوظف في فنه كل بصمات عرقه، وشخصيته العربية الاسلامية وسيبقى كذلك الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

فبعد هذا المدخل، ونحن بصدد التحدث عن فنون وحرف الشاوية واستنادا الى ما ذكرناه عن المعطيات الضرورية لكل فن وحرفة، اود ان اشير الى انه وبعد الاطلاع على مصادر مختلفة تتعلق بحياة الشاوية وما يحيطها من مناطق حضرية

ومدنية فان معظم المؤرخين والرحالة الذين وقفوا على احداث الشاوية وحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية، لم يتطرقوا، ولو بإشارة بسيطة الى الفنون الشعبية والحرف التقليدية والى التطور الحاصل لمختلف الحرف وما اصابها من انهيار وانقراض بعدما كانت مزدهرة تفي بكل طلبات المجتمع الا لوحتين في كتاب عن اللباس المغربي لمؤلفه Main Jeu Besancenet planches n° 10 et 16 الذي ابرز فيهما برسم دقيق الحايك الذي كان يصنع بالشاوية وهو فريد من نوعه من حيث الرقة والمنظر.

ولم يتطرق المؤرخون الى الانحلال الذي اصاب الفنون وانقراض بعضها. ومن خلال تلك المصادر وعبر الرحلات التي قام بها هؤلاء من العرب والاجانب الى الشاوية امكن وضع تصور لما قد كانت عليه الفنون والحرف التقليدية عبر تاريخها الطويل الحافل بالاحداث التاريخية البارزة.

ولم يأتي ذكر «الشاوية» الحالية بهذا الاسم في الكتب القديمة للمؤرخين والرحالة والجغرافيين الذين زاروها، انما يتحدث التاريخ عن «تمسنة» وعن الساحل المغربي والساحل الافريقي الغربي المعروف بالمغرب الاقصى لان هذه المنطقة كانت معروفة منذ زمن بعيد، وجدت بها بعض مراكز الرومان والبيزنطيين وزاد الاهتمام بها في العصور الوسطى بسبب الاهتمام بالرحلات الاستكشافية التي قام بها الرحالة المسلمون والاجانب وخاصة البرتغاليون الذين اطلقوا على هذه الارض اسم «الشاوية» ففي اوائل القرن السادس عشر اكتشف الرحالة Vasco de Gama البرتغالي ارض الهند في طريقه على طول الساحل الافريقي وكان قد تعرف على هذه الناحية وتعرف على معاليها، شيد البرتغاليون خلال احتلالهم للجديدة ما يعتبر اكبر معلمة معمارية في افريقيا ذات الاسلوب القوطي والفريدة من نوعها كمعمار عسكري قديم.

واستنادا الى المصادر التي اهتمت بالشاوية نستنتج ان الشاوية حاليا وتمسنة قديما تقع غرب وادي ام الربيع وتمتد نحو الاطلس جنوبا والاطلنطي شمالا. وتعتبر زهرة هذه المنطقة من المغرب حباها الله بخصوبة الارض ووفرة المياه التي كان البحارة يترددون على موانئها للتزويد من المياه العذبة وتكثر بها المحصولات الزراعية من فحم وشعير وكانت الشاوية اغنى منطقة فلاحية في المغرب الاقصى كما اشار الى ذلك ابو الحسن علي سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا قائلا : «ان منوغان ميناء تدخله المراكب التي جاءت لتحمل القمح الى سبتة وتطوان...».

وكثير الحديث عن فدالة، وانفا وتمسنة وازمور في الكتب القديمة وارضيتها

الفلاحية التي تنبت الحبوب المختلفة والفواكه التي يجنيها الفلاحون في اواسط شهر ابريل واعتادت ارسالها الى فاس وتحدثت كذلك عن الحياة العمرانية والمدن العديدة والقصور والبساتين الغناء، وازدهار التجارة مع البرتغاليين والانجليز، ويقول الغرناطي الزباني الملقب بالافريقي في وصفه لافريقيا سنة 1525 ان مدينة انفا وهو ميناء تمسنة مدينة متحضرة مزدهرة بها القصور والقلاع ودكاكينها جميلة، انيقة، وان البواكر كالبطيخ والقرع تقطف في شهر ابريل كفاكهة مبكرة يحبها اهل فاس وان سكان المدينة يلبسون لباسا فخما وانهم متحضرون ولهم ثقافة عالية بسبب علاقاتهم التجارية مع التجار البرتغاليين والانجليز الذين يترددون على هذه المدينة المشهورة وانه يتالم لما شاهده بعد ذلك من الخراب الذي اصابها على يد البرتغاليين...»

ومما ذكر كذلك ان الفلاحة وتربية المواشي كانا في توازن مع التجارة الخارجية مما سهل على انشاء مدن ساحلية على الساحل الاطلسي تربط الشمال بالجنوب وكانت الشاوية عبر منافذها البحرية تربط علاقات تجارية مهمة مع مختلف دول أوروبا وان سكانها كانوا على دراية بالمعاملات التجارية والحرفية مع تلك الدول وخاصة مع البرتغاليين والانجليز.

من هنا نرى ان مدينة انفا (الدار البيضاء حاليا) كانت تحتل الرتبة الخامسة بين مده المملكة بعد فاس ومراكش واحتلت مركزا مهما بين موانئ أوروبا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وظهرت في الخرائط البحرية الأوروبية المتداولة. يؤمها البحارة والتجار من جزر مايوركا وكاتالونيا باسبانيا والبحارة في البرتغال وهولندا وإيطاليا وجنوة وكان لهؤلاء مراكز تجارية قارة بالشاوية.

من هنا يمكن التصور للمظهر الحضاري والعمراني للشاوية، وان كل ما ذكر لابد وان يؤثر على ازدهار الصناعات والحرف على اختلاف فروعها. وهي الحرف التي لها علاقة ببناء السفن وتجهيزها. لكن احداث مثلثة ايام المرابطين قضت مليا على اوجه الحضارة ومؤثراتها الخارجية وقضى على شوكة قبائل البرغواطية وظلت هذه الناحية من المغرب ارض خلاء مدة 180 عام تسكن بها قبائل رعاة تنتقل بخيامها عبر سهول الشاوية، وتتحدث مصادر أوروبية عن اجتياح الارض بالنحل والجراد الذي عشعش بها مدة طويلة في الانقراض لمدن مزدهرة في الماضي وتحدث عن الهجرات المستمرة وحلت محلها الحيوانات المفترسة كالاسد، والدئاب وغيرها.

لقد تعرضت الشاوية عبر فترات دقيقة في تاريخها الى الحملات المستمرة من الملك الاسباني الفونسو الخامس الذي امر عسكره بنشر الدمار للقضاء على الاحتكار التجاري بالشاوية، واتى البرتغاليون ينشروا الخراب ثم جاءت الحروب

والفتن الطاحنة الداخلية واخيرا كانت الحماية الفرنسية التي قضت سنة 1917 الى 1924 على ما تبقى من الانقراض وتعداها الى مسخ معالمها.

فبعدها كانت بالشاوية صناعات وفنون عريقة تبرز نخوة القبائل التي كانت تعترز بقوميتها وبعد الهجرات المستمرة للصناع والحرفيين من مسلمين ويهود الى عدة جهات المغرب اصبح اهل الشاوية يستوردون كل شيء كالسكر، والشموع، والشاي، والاقمشة المصنوعة من القطن المزينة بالوان براقّة من مانشستر Manchester بانجلترا وفرنسا وإيطاليا واقمشة صوفية مصنوعة بمعامل اوروبا. وتأثر الاهالي بالالسنة العسكرية وعمت الاحذية المطاطية المصنوعة باليابان واستبدال المحارث الخشبية بالحديدية ولم تبق الا بعض الحرف التقليدية البسيطة من النسيج، وصناعة الدوم لانتاج القفف والاطباق وبقيت صناعة الفخار بشكل بدائي، واندثرت صناعة خشب العرعار والجوز. واختفت دباغة الجلود المختلفة ولم يبق من صناعة الحدادة الا القليل كل ذلك حل محله نوع من إغراق السوق بالمواد المستوردة ساعد في ذلك التجار اليهود الذين كانوا يقومون بصفقات تجارية بين الداخل والخارج بين المنتجين المحليين والسوق الخارجي حتى انهم اسسوا فنادق ومخازن بالمدن الساحلية وخاصة الدار البيضاء، ومن خلال الرحلات التي قام بها عديد من المهندسين والباحثين والموظفين الفرنسيين عبر الشاوية تحدثوا عن الحياة البدائية التي وجدوها ابان الحماية ونسوا الازدهار الذي كانت تعيش عليه الشاوية ماضيا. فقد كانت ارض الشاوية تنتج عدد لا يحصى من المنتجات كالالياف النباتية، وقشور الرومان للدباغة والنباتات الصابغة لصبغة الاقمشة والصوف، والنباتات الطبية، والشمع، والجلود وشعر الماعز والابل، وخشب العرعار وخشب الجوز، والفخار، والخيوط والحنا، والقطران وحتى معدن الاندغو Indigo وهي مادة صباغية ذات اللون الازرق الداكن الذي تصبغ به الاقمشة التي تستعمل في مختلف مناطق المغرب الجنوبي والاطلس وكانت تصدر الى مناطق اخرى وهو لون محبب نراه مثلا في كثير من زرابي الاطلس وفي السلام، ونراه بارزا في الاحنيفة AKHNIFE وفي تنهوزانت ولا شك ان فن الصباغة بهذه المادة النباتية كان له تأثير كبير في خلق نمط من اللون يمتاز به الجانب الجنوبي من المغرب عبر الاطلس وممتدا الى كل نواحي الصحراء حتى موريطانيا والسنغال.

وعلى ضوء كل ما قيل ونظرا لضيق الوقت لم اتمكن من التعمق في المصادر عسى ان اجد ما يبيّن السبيل للوصول الى معرفة الحالة التي كانت عليها الفنون والحرف التقليدية بالشاوية خلال فترة طويلة من التاريخ. فلا شك أنه كان للفنون

والحرف بهذه المنطقة علاقة وطيدة مع فنون وحرف الاندلس عبر الاتصال البحري بين الشاطئ الغربي وستبة وجبل طارق واسبانيا.

وكل عرض يهتم بالفنون والحرف التقليدية المغربية يكون مقصرا اذا لم يكن ذلك معززا بالرسوم والصور الشفافة لمزيد من المعرفة والنقد والمقارنة لان الحديث عن الفن بصفة عامة والفنون التطبيقية بشكل خاص «يحتاج الى حديث وعرض «بصري» لابرار الملاح الهندسية والالوان المختلفة، والتعابير الجمالية وبودي الاطراء هذه المناظرة في المستقبل، القيام بدراسة ميدانية عبر التسجيل المرئي واعداد معرض شامل يبرز الملاح الرئيسية لدراسة الفنون والحرف بالشاوية وعلاقتها بالفنون والحرف المحيطة بها والمؤثرات الخارجية حتى يتمكن المرء من تحديد ملامح وشخصية الفنون والحرف بالشاوية .
والله المعين والسلام.

اعداد : المهدي الخيرو

بمساعدة :

محمد الزين

صالح الحمزاوي

خليل الصافي

فهرس

الصفحة

- تقديم

محمد بن عيسى وزير الثقافة..... 3

(ندوة تاريخ الشاوية)

- الوجه الثقافي للشاوية عبر العصر الحديث

محمد المنوني..... 7

- القيم الاجتماعية التربوية والتحول الاجتماعي في منطقة الشاوية

د. مبارك ربيع..... 17

- بعض مظاهر.. تامسنا من خلال رحلة

د. محمد مفتاح..... 30

- روابط الزاوية الشرقاوية بقبائل الشاوية

أحمد بوكاري..... 39

- مقاومة سطات والقبايل المجاورة للاحتلال الفرنسي سنة 1908

علال الخديمي..... 48

- مظاهر الوعي الوطني المبكر في انتفاضة الشاوية سنة 1907

أحمد زيادي..... 55

(ندوة فنون الشاوية)

- مشروع لدراسة الادب الشعبي في الشاوية

عمر أمرير..... 65

- موسيقى السهول المغربية

عبد العزيز ابن عبد الجليل..... 72

- الازروجة والحوار ما بين تسغيرت والدير...

محمد أبو حميد..... 81

- الفنون والصناعات التقليدية، بالشاوية

محمد السرغيني عيدة..... 88